كاتب عمومي

رواية

عبّاس سليمان

نسخة الكترونية

منشورات الزرافة

للنشر الإلكتروني الذاتي

صالح مبروكي

الهاتف: +21698603987

تصميم غلاف النسخة الإلكترونية: صالح مبروكي 2021

عبّاس سليمان

كاتب عموميّ

روايـــة

الكتاب : كاتب عمومي

المؤلّف : عبّاس سليمان

الجنس الأدبي : روايــة

تـصديـر

ما الذي يعنيه بالنّسبة إليّ أن اكون كاتبا ؟

يعني ببساطة أن أكون مخلصا لمـخـيّـلتي.

بورخيس

1

أعرف جيّدا هذا التّردّد الذي يظهر على "رفيق" كلّما همّ بالكلام معي في أمر مهمّ. كنّا نستقلّ طاولة في مقهى "الرّكن الأزرق" ونرتشف من فنجانيْ قهوة

سوداء ونمتصّ الدّخان ونجترّ أخبارا باردة عندما بدأت ألاحظ تتالي سجائره وازدياد نقراته على الطّاولة واضطراب قدميه.

تظاهرت بعدم الإنتباه لاضطرابه الذي لا شكّ في أنّه يخفي وراءه حديثا جديدا وانكببت على الأرضيّة ألتقط بطاقة هويّة الرّجل الذي كان جالسا معنا منذ حين والذي أحرجني وأنا في المقهى والنّاس من حولي وألحّ عليّ وقد كان مسلّحا بقلم أزرق وورقة وظرف كي أحرّر له شكاية ضدّ ابنه الذي يرفض أن يساعده ويقتطع له من جرايته العالية مبلغا قارّا.

عندما دسست البطاقة في جيبي وأنا على يقين أنّ صاحبها سيعود للبحث عنّي وعنها آجلا أو عـاجلا ومددت يدي إلى علبة السّجائر أستلّ ممّا بقي منها واحدة، انتبهت إلى أنّ صاحبي يلتفت إليّ ويواجهني ويخاطبني وكـان ملازما الصّمت مذ جلس إلينا الشّيخ صاحب الشّكاية الذي ترك بطاقة هويّته تحت الطّاولة ونهض هاشّا باشّا كأنّ ورقته التي قمت بتحريرها ضمنت له منحة قارّة من جراية ولده.

– اسمع "مبروك"، لماذا لا تحوّل هذا التّطوع الذي يفرضه عليك هؤلاء اللّاهثون وراء العرائض والاعتراضات والمطالب والشّكايات والاستمارات والالتزامات إلى عمل قارّ تملأ به وقتك وتؤمّن به مصاريفك؟

مشدوها ممّا قال "رفيق" وعاجزا عن أيّ تعليق كلاميّ زممت شفتيّ وحرّكت رقبتي ولزمت الصّمت.

انتهز "رفيق" صمتي ليفسّر اقتراحه ويبرّره ويدعمه ويلحّ عليّ لقبوله.

– منذ سنوات وأنت قِبلة كثيرين من هؤلاء المغرمين بتحاريرك المجانيّة يصطادونك في المقاهي وفي الشّوارع ويتجرّؤون عليك في بيتك وبيوت الجيران ويستوقفونك في الطّريق تكتب لهم مطالب رخص البناء والماء والكهرباء وشكايات الطّلاق ومكاتيب الصّلح وعقود البيع دون أن ينالك من شقائك ملّيم أبيض... دعك من دعائهم لك بالتّوفيق وبالنّجاح – ها أنت ترى أنّ دعاءهم لا يحقّق شيئا – واتّخذ لك مكتبا تحرّر فيه ما يُطلب منك بمقابل... ولن تخسر شيئا.

أصل الحكاية أو أصل البليّة يعود إلى ما بعد حصولي على شهادة الباكالوريا بقليل، صيفها كنت نجم الحيّ– بتلك الشّهادة كان يمكنني أن أصبح مباشرة ودون أيّ امتحان آخر معلّما بالمدارس وأن أتقدّم للحصول على أيّ وظيفة متوسّطة بإحدى الإدارات– حرّرت أيّامها وإثر ظهور النّتيجة مطلب شغل لواحد من أقاربي صادف أن حظي بالقبول ودعي الشّاب إلى مباشرة العمل

فظنّ من سمع الخبر أنّ للكتابة والصّياغة دخلا في مآل المطلب وأصبح الأقارب –قبل أن ينتشر الخبر لدى غيرهم من سكّان المدينة – يترجّونني أن أحرّر لهم مطالبهم وشكاويهم واعتراضاتهم.

التحقت بعد الصّائفة بالجامعة أدرس فيها اللّغة العربيّة وآدابها ولكنّ اللّاهثين وراء تحاريري كانوا يستغلّون عودتي أثناء العطل ليعرضوا عليّ حالاتهم طالبين منّي أن أحوّلها إلى مكاتيب رسميّة مضمّنة في تحارير ومودعة في ظروف.

انتهت أعوام الجامعة وبدأت سنوات البطالة ولم ينس أهلي ومعارفي أنّني بارع في الكتابة وفي تحرير المطالب والشّكاوي والعرائض بل إنّ الباحثين عنّي ازدادوا حتّى أصبحت أضع في جيوب ملابسي الأقلام الزّرقاء والأوراق البيضاء وأتوقّعهم في كلّ منعطف وفي كلّ جلسة مقهى وكلّما طرق بابنا طارق.

لم أعر كلام "رفيق" انتباها مخصوصا... سمعته ولم أفكّر فيه... لم أرحّب به ولـم أعترض عليه... لم أرغب فيه ولم أنفر منه... ولكنّ ذلك الكلام عاد ليلحّ عليّ لفظا لفظا بعد يومين بالضبط.

كنت أذرع الشّارع الرّئيسي للمدينة تائها أو كالتّائه عندما رنّ في جيبي هاتفي وخاطبني زميل دراسة قديم يسألني إن كنت اطّلعت على نتيجة مناظرة انتداب الأساتذة...تركت كلامه معلّقا وهرولت نحو أقرب مكتب إعلاميّة واندسست وراء

واحد من الحواسيب ونقرت عليه قليلا ثمّ أدخلت رقم بطاقة هويّتي فأسرعت إليّ كأنّها كانت مختبئة تترصّدني تلك الجملة التي دأبت على مواجهتي منذ اثني عشر عاما : "نأسف لعدم قبولكم."

كان ينبغي أن تمرّ ساعتان... ثلاث ساعات... أربع ساعات... أن تختفي الشّمس وتظلم الدّنيا ...حتّى يخفّ وقع تلك الجملة ويتبخّر مفعول سمّها... أطفأت جوّالي واتّجهت نحو حانة كانت على بعد خمس دقائق منّي... اخترت زاوية وبدأت أمحو وقع الخيبة.

ظهور نتيجة انتداب الأساتذة وانطفاء جوّالي واختفائي من المقهى وغيابي عن البيت كانت أسبابا كافية دفعت "رفيق" للبحث عنّي.

كنت بين قارورتين عندما وضع يده على كتفي ثمّ سحب كرسيّا وجلس يقابلني. هو يعرف أنّي لا أطيق عبارات المواساة ولا أحبّ تبرير الفشل. الفشل هو الفشل وليس له عنوان آخر.

جلس قبالتي وبدأ يقاسمني امتصاص الخيبة.

عندما قاربنا على الخروج كانت الحانة قد امتلأت بروّادها ولم يعد أحد يسمع أحدا ولكنّ الجميع كانوا يتظاهرون بالإنصات وبالفهم وبالانتباه إلى كلام بعضهم بعضا... ومن ركن بعيد انطلق صوت حزين يؤدّي أغنية تبيّن منذ المقاطع

الأولى أنّها حكاية حبّ منيت بالفشل... استطاع ذلك المغنّي أن يسكت الحانة فخيّم صمت مطبق ولم يعد يسمع غير الموّال الحزين وآهات التّأثّر تنبعث من هنا وهناك... انتهت الأغنية فعمّت موجة تصفيق وتصفير طويلة ثمّ عاد السّكارى إلى ضجيجهم وإلى قواريرهم ورأيت قوارير مختلفة الألوان والأحجام ترسل إلى المغنّي تعاطفا أو ردّا على الأغنية أو إعجابا بالصّوت وباللّحن وبالأداء وبالحكاية.

كنّــا على أهبة ترك مجلسنا عندما اقترب منّي كهل أشعث بيده ورقة بيضاء وقلم وبطاقة هويّة ومطبوعة مختومة بختم دائريّ أزرق وضعها بيني وبين "رفيق" وأشار إلى نادل الحانة الذي فهم إشارته وأسرع يجلب أربع قوارير ويضعها أمامي.

– اسمعني من فضلك "سي مبروك"، اطلب لي رجاء تخفيضا في مبلغ النّفقة الشّهري الذي حُكم به عليّ لفائدة طليقتي، قل للقاضي إنّني لا أملك دخلا قارّا وإنّ مبلغ المائة دينار المفروض عليّ مبلغ فوق احتمالي وقل له إنّ طليقتي ليست في حاجة إليه وإنّها تجني كلّ يوم من قاعة حلاقتها ما يفوقه بكثير...

قال ذلك وبسط الورقة أمامي ووضع القلم بين أصابعي وبدأ يحثّني على أن أكتب وأفصّل القول للقاضي وأقنعه وأذيب قلبه عطفا عليه وأملأه غيظا على مطلّقته الجشعة...

كتبت... لا أدري ما كتبت ولكنّي سلّمت الورقة إلى الكهل الأشعث زرقاء من أوّلها إلى منتهاها.

قلت لـ"رفيق" وأنا أشرب الكأس الأخير:

– سآخذ بنصيحتك، غدا أشرع في البحث عن محلّ أتّخذه مكتبا أمارس فيه الكتابة للعموم بمقابل.

2

كان عليّ أن أعثر على مكتب لا يبعد كثيرا عن المحاكم والمحامين وعدول التّنفيذ، تلك محطّات ينبغي المرور إليها بعد العثور على كاتب يحرّر الشّكوى.

كنت و"رفيق" ندرك أنّ تسوّغ محلّ بتلك الشّوارع أمر على درجة عالية من العسر ولكنّنا عوّلنا على البحث وعلى الحظّ وكنّا ندرك أنّ الكثيرين قبلي يشغلون هذه الخطّة ولهم فيها تاريخ وصيت وحرفاء وأنّ الأمر سيقتضي منافسة شرسة بيني وبينهم.

انتشر خبر بحثي عن مكتب أنتصب فيه كاتبا عموميّا بين أصدقائي الذين عبّروا عن رغبتهم الجادّة في مساعدتي والوقوف إلى جانبي حتّى إنّ أحدهم لمّا ضاقت بنا السّبل اتّصل بكاتب عموميّ عجوز واقترح عليه أن أقاسمه مكتبه ونتقاسم المرابيح ولكنّه استغرب الاقتراح ورفضه... ثمّ جاء الفرج عن طريق صاحب المقهى الذي نرتاده كلّ يوم.

الحقيقة أنّ صاحبها زميل دراسة تخرّج معي في نفس العام من نفس الكلّية ولكنّه لمّا أدرك أنّه لن يشتغل بشهادته فوّت فيها إلى الدّولة مقابل قرض استثمره في فتح مقهى وسط المدينة... تحوّلت وجهته تماما... من أستاذ مؤهّل لأن يدرّس النّحو والصّرف والبلاغة وشرح النّصوص والتّدريب على الكتابة إلى "عَرْفٍ" يشرف على طبخ الشّاي وإعداد القهوة وإشعال الكوانين وتوفير ورق اللّعب ومحاسبة النّدال وإخماد الخصومات... قضى "نبيل" سبعة عشر عاما بعد بلوغه سنّ السّادسة يلهث وراء أستاذيّة في اللّغة العربيّة وآدابها ليصبح بعد كلّ تلك الرّحلة صاحب مقهى لا علاقة له بما درس وبما كان يفترض أن يدرّس... بلغ إلى صديقي أمر بحثي عن محلّ وكان على علم بتفاصيل بطالتي التي طالت فعرض عليّ أن يسوّغ لي دكّانا في طرف المقهى كان يخصّصه لوالده قبل موته

يلتقي فيه ومجموعة من أصدقائه المتقاعدين يلعبون فيه الورق ويقتلون فيه الوقت ويأكلون فيه لحوم بعضهم ولحوم أقاربهم وأصحابهم وأهالي المدينة.

ورغم خوفي ممّا أنا مقدم عليه، فقد كان فرحي بعثوري على ذلك المحلّ يكاد يشبه فرحي بالعثور على وظيفة.

كنت خائفا من مآل التّجربة وكنت خجلا ممّا سأقدم عليه ولكنّ يأسي من الالتحاق بالتّدريس واقتنـــاعي بأنـّي لن أخسر شيئا شجّعاني على المضيّ قدما... رأسمالي مجموعة أوراق وأقلام ولافتة وتحارير حفظتها عن ظهر قلب.

تبرّع صاحبي "معزّ" وكان خطّاطا ماهرا فطلى بلون أسود مستطيلا فوق الباب كتب فيه "كــاتب عمـومي" تمّ زاد فرسم لي تحت ما كتب بورتريه ذيّله باسمي ولقبي وكتب تحتهما "متخرّج من كليّة الآداب والعلوم الإجتماعيّة 9 أفريل تونس"، ودلّني "رفيق" على محلّ ضخم يبيع أثاثا مستعملا مجلوبا من إيطاليا باعني صاحبه وبالتّقسيط ودون ضمان مكتبا وكرسيّا ومروحة ومقعدا خشبيا طويلا.

وجاءني صاحبي "أحمد" بعد أن اتّصل بصاحب مطبعة بمائة بطاقة زيارة عليها الإسم الكامل والصّفة الجديدة وموقع المكتب تقاسمنا توزيع بعضها وأبقينا على عدد منها للزّائرين المحتملين.

قال لي "رفيق" وهو يهمّ بالخروج:

– لا مجال هنا لدعوات الخير مقابل التّحارير، لا تنس أنّك مطالب بدفع إيجار المحلّ وأقساط الأثاث علاوة على مصاريفك الأخرى.

تتالى على زيارتي كلّ من صاحب المقهى "نبيل" و"رفيق" صاحبي و"معزّ" الخطّاط و"أحمد" صاحب فكرة البطاقات و"محجوب" الذي اقترح على كاتب عموميّ عجوز أن يؤويني معه ووضعوا على طاولتي حاملة أقلام ومعطّر جوّ لا أدري لماذا اختاروه برائحة النّعناع وشدّاد أوراق وختما عليه اسمي ولقبي ولوحة بلاستيكية مستطيلة عليها صفتي الجديدة وعلبة حبر وسلّة للمهملات الورقيّة... شكرتهم كثيرا وقبل أن أنهي كلام الشّكر خرج صاحب المقهى ونادى حرفاءه داعيا إيّاهم لحفل افتتاح المكتب.

غصّ مكتبي الصّغير بجماعة المقهى ووقف فيهم صديقي خـاطبا:

مرحبا بكم جميعا، هذا مكتب صديــقنا "مبروك"، تعرفون "مبروك" جيّدا، لا أحد يحرّر مثله المطالب والعرائض والشّكايات، قلمه سلس وأصابعه مباركة، سنقف جميعا إلى جانبه إلى أن ينتشر أمر افتتاحه مكتبا بين النّاس.

ثمّ مدّ يده إلى البطاقات فعمد إلى توزيعها عليهم وألحّ كثيرا على أن يؤمّنوا لي دعاية بين أهاليهم وأصحابهم.

ولا أدري لماذا طلب منهم بعد ذلك أن يقرؤوا الفاتحة. مددت يدي مع أيديهم وتمتمت معهم قليلا ثمّ أمّن صاحبي وأمّنّا بعده وعاد الحرفاء إلى كراسيهم وتفرّق من حولي النّاس وبدأت أنتظر أوّل حريف منشغلا بترتيب مكتبي وتأثيثه بما جلب أصدقائي من هدايا... ضخخت في هوائه من العطر الذي جلبوه فانتشرت رائحة كرائحة الشّاي المحترق وعلّقت على واحد من الجدران اللّوحة التي فيها "ألم نشرح لك صدرك" المكتوبة بالأسود على خلفيّة صفراء وبدأت أقرأها وأكرّر قراءتها – وكنت نسيتها كما نسيت كثيرا من سور القرآن – متوقّفا في كلّ مرّة عند "ورفعنا لك ذكرك".

ليلتها، ليلة افتتاح المكتب، رأيت في منامي المقعد الخشبيّ الأخضر غاصّا بالحرفاء ورأيت حرفاء آخرين يقفون في انتظار أن تخلو لهم أماكن للجلوس ورأيت قلمي الأوّل يجفّ ووجدتني أعوّضه بقلم الاحتياط وأحسست أصابعي ترتخي من شدّة ما أمسكت بالقلم وما كتبت... ورأيت درج مكتبي يمتلئ بالأوراق النّقديّة.

وجاءني وأنا بين عريضتين الشّيخ الذي أضاع بطاقة هويّته يسأل إن كنت رأيتها أو عثرت عليها فمددت يدي إلى جيبي وأعدتها إليه فانهال عليّ شكرا وعلى تحاريري تمجيدا وزاد فقال إنّ الحاكم حكم له بفضل ما حرّرته له بمائة دينار قابلة للزّيادة يتسلّمها عبر حوّالة بريديّة آخر كلّ شهر.

فرحا نهضت... حرّكت يدي فألفيتها مرتخية وبكلّ أصابعها ألم لا يشبهه إلّا ألم داء النّقرس... إذن قضيت اللّيل أكتب ولا يمكن أن يكون هذا إلّا فأل خير... ظللت أمسّد أصابعي إلى أن استعادت هيأتها الأولى ونشاطها المعتاد ثمّ أفطرت وتوجّهت إلى مكتبي.

3

– السّلام عليكم.

حوّلت رأسي من سورة الشّرح إلى الرّجل الواقف بالباب والذي يبدو أنّه أوّل حريف يزورني طالبا أن أكتب له تحريرا بمقابل. كهل على عتبة الشّيخوخة ضخم الصّدر، رأسه أصلع وكبير، وجهه منتفخ، أذناه تتدلّيان من فرط طولهما، كرشه شبه العاري ممتدّ أمـــامه، يلبس سروالا قصيرا ينزل إلى ما تحت الرّكبتين بقليل يتدلّى فوقه قميص في جانبيه آثار عرق... وقفت أحيّيه وأشرت إليه بالجلوس مبتسما في وجهه وشجّعته على أن يأخذ في الكلام فأنا أعرف أنّ الكثيرين يأتون وبهم خجل من أن يطلعوني على مآسيهم.

– أنت الكاتب العموميّ الجديد ؟

– نعم.

– سمعت عنك.

– شكرا لك.

انتبهت إلى أنّي شكرت الرّجل دون أن تكون لديّ فكرة عمّا سمع عنّي.

– جئت أعرض عليك المساعدة.

– شكرا مرّة أخرى.

– لم تسألني كيف ولكنّي سأجيبك : اعلم أنّ تعليق لافتة وارتجال حفل افتتاح خطوات لن تجديك نفعا. دعك منها جميعا ولا تعلّق عليها أملا يذكر.

هممت بالكلام فأسكتني.

– أنا من سيؤمّن لك دعاية فعليّة، لا تسألني كيف، أنا أعرف كيف أجلب الحرفاء... ولكن قل لي : كم سيكون نصيبي ممّن سأسوقهم إليك؟

لم أرتح لكلام الكهل ذي الكرش شبه العارية والرّائحة الشّبيهة جدّا برائحة الجوارب النّتنة ولم يكن لديّ جواب أردّ به عليه ولكنّي أمعنت النّظر قليلا في سورة الشّرح وقلت له :

– سوف نتّفق حول نصيبك بعد ما ينطلق العمل ويزور مكتبي هؤلاء الذين قلت إنّك ستسوقهم إليّ.

– اتّفقنا، قالها ونهض ثمّ أضاف وهو يضع قدمه على عتبة الباب :

– أنا "سالم السّالم"، اعتمد عليّ وثق بي وستلمس النّتائج بيديك.

وقفت أجوب المكتب وأضخّ فيه من عطر النّعناع الذي جلبه أصدقائي ثمّ شغّلت المروحة لأطرد بهوائها وبرائحة الشّاي المحترق رائحة الجوارب العفنة التي نشرها هذا الذي جاء يدّعي أنّه قادر على مساعدتي وملء مكتبي بالحرفاء والحريفات.

كان المكتب على أهبة استعادة رائحته الأولى عندما قفز داخله من جديد الرّجل نفسه ذو الرّأس الأصلع والكرش الكبيرة المدوّرة المطلّة من تحت سترته ومن فتحات أقفالها. قفز وهو يسوق أمامه امرأة لا أدري من أين التقطها ولا كيف عرف أنّها تبحث عن كاتب عموميّ.

رحّب بها في مكتبي وأجلسها أمامي وأوصاني بها خيرا ومضى يقف على العتبة مخلّفا روائح تكاد تزكمنا – المرأة التي جلبها وأنا–.

قالت :

– أنا "هالة".

وبدأت تبكي.

وبدأت أترجّاها أن تسكت وتهدأ وتطلعني على حقيقة أمرها. وإذ انتبه الرّجل إلى دموعها وسمع نشيجها قفز في اتّجاه المقهى وعاد بعد دقيقتين بقارورة ماء وبدأ يصبّ منها للباكية ويشجّعها على الشّرب.

– سيّدة "هالة"، لا يصحّ أن تقضي الوقت في البكاء ونحن في مكتب يطلّ على المدينة. أنا لم أفهم منك شيئا ولم أدرك بعد لماذا شرّفتني بالمجيء ولا لماذا هذا البكاء الذي طال. من فضلك – قلتها بحزم – تكلّمي وأفصحي عمّا لديك.

بدأت تتكلّم وبدأت أسجّل ما يهمّني من كلامها.

فهمت أنّها زُوّجت منذ عشر سنين لأرمل مسنّ يكبرها بثلاثين عاما تزيد رضيت به رغم جمالها الفتّان وقبحه المنفّر ورغم الفارق الشّاسع بين عمريهما ورغم اختلافهما في كلّ شيء ثمّ اكتشفت منذ أيّام أنّه لمّا أحسّ بدنوّ موته نقل إلى ملكيّة ابنته المتزوّجة الدّار والمزرعة والأموال وقطعة أرض صالحة للبناء ففهمتْ أنّه كان يكتريها جسدا يفجّر فيه آخر شهواته وخادمة ترتّب له شؤونه وممرّضة تسهر على علاجه ومؤنسة يقضي بها أوقات الفراغ ثمّ لمّا أدرك أنّ الموت يتقصّده فضّل عليها ابنته وتركها للعراء.

– اكتب أيّها الكاتب، اكتب ما سمعت وما لم تسمع، اكتب جشعه وخبث نواياه ونكرانه العشرة والجميل. اكتب اصراري على تتبّعه من أجل التحيّل الواضح. اكتب أنّني لم أبخل عليه بشيء، بعثر جسدي وفرض عليّ مزاجه الأخرق وامتصّ شبابي وقوّتي ثمّ نذرني للمجهول.

اكتب واقرأ عليّ من حين لحين ما كتبت.

كان قلمي يحفر في الورقة حفرا تأثّرا بحكاية "هالة" وغيظا على زوجها الذي لا أدري لماذا أصبحت أراه خصما لدودا.

أنهيت العريضة وقرأتها على مسمعها جملة جملة فلاح على وجهها ارتياح كبير وبدا جمال عينيها واضحا رغم اختلاط دموعها بالكحل. مددت إليها الورقة فوضعت امضاءها أسفل ما كتبت ثمّ دسست الورقة في ظرف أحمر وأشرت عليها بالتّوجه مباشرة إلى المحكمة.

رأيتها تدخل يدها في حقيبتها اليدويّة وتفتّش فيها فأشرت عليها أن كفّي عن التّفتيش وأقسمت أنّني لن أتقاضى أجرا عمّا كتبت فدعت لي بالخير وودّعتني قائلة :

– أعو د إليك كلّما احتجت إليك.

لكم أحسست وقتها بقزامة موقعي. ليتني كنت القاضي الذي سينظر في ملفّ هذه المليحة التي استعملها واحد يفوق عمره عمرها بثلاثين عاما لمدّة عشر سنين ثمّ لمّا انتهت صلاحيّاته وفهم أنّه لم يعد قادرا على استعمالها فضّل عليها ابنته المتزوّجة ولم يحسب لها أيّ حساب.

ليتني كنت القاضي لآمر بجلبه في الحين مقيّدا في السّلاسل وأسأله ما ذنب "هالة" حتّى ترمى من بعده لكلاب الشّوارع.

ليتني كنت القاضي لأسأله أيّ معنى لصلاته التي يقيمها خمس مرّات في اليوم الواحد وأيّ معنى لحجّه الذي استطاع إليه سبيلا.

أدركت منذ أوّل خطاب كتبته –دون أجر طبعا– أنّني صغير جدّا وأصغر من أمانيّ وممّا أتوق إليه.

سيقرأ القاضي الشّكاية وسيدعو إلى المحكمة الشّيخ الواقف على حافّة الموت وسيقدّم محاميه ما يثبت أنّه مريض لا قدرة له على المحاكم وأنّه لا شيء يمنعه من توريث ابنته وسينتهي الأمر إلى الطّلاق وستخرج "هالة" إلى الشّوارع والدّيار تعرض بقايا فتنتها للعموم وستسكن صدرها عداوة للرّجال قد تترجمها أفعالا مختلفة... ستفجّر فيهم حقدها على زوجها الذي رماها إليهم وستطفئ فيهم عطشها إلى الانتقام.

شربت ما بقي من قارورة الماء التي جلبها "سالم السّالم" لبكاء هالة وخرجت أنضمّ إلى جلسة أصدقائي في المقهى.

كأنّهم كانوا متّفقين على نفس السّؤال:

– بداية طيّبة ولا شكّ ؟

– طيّبة جدّا، أجبتهم.

وضعت باب المكتب نصب عينيّ وجلست إلى جوارهم أتابع جريان الأوراق بين أيديهم وأنا أفكّر في ما ينتظر حريفتي وفي ما يمكن أن يفعله من أجلي صاحب الكرش المنتفخة ورائحة الجوارب القاتلة.

4

وصلت إلى مكتبي بعد توقيت فتح المكاتب بساعة كاملة على الأقلّ.

قالت لي أمّي:"لا تخرج الآن "مبروك"، انتظرني قليلا".

قالت ذلك وأطبقت خلفها الباب واندفعت خارجة تحثّ خطاها كمن يخشى أن يفوته موعد مهمّ.

عاودت الدّخول إلى غرفتي وجلست أتصفّح آخر أخبار شبكة العنكبوت باحثا عن حظّي اليوم وعن حالة الطّقس وآخر الأنباء.

خبر عن قاضي يعاشر قاصرا ويتعامل مع الإرهاب...

خبر عن طبيب يصلح قلوب مرضاه بلوالب فاسدة...

خبر عن دوريّة أمنيّة سرقت ستّة وثلاثين ألف دينار من مواطن...

خبر عن نقابيّ أمني يستعمل تسجيلات الدّاخلية لابتزاز الداخليّ...

خبر عن جهات رسميّة تستعتمل القاصرات للإيقاع بالقضاة...

خبر عن جهات في الدّاخلية تسرّب الفيدوهات للنّقابات...

خبر عن سفير ألماني يعيّرنا بالوسخ ويهدّدنا بقطيعة سياحيّة...

أخبار أخرى كثيرة...

ظللت هكذا إلى أن سمعت الباب يفتح وأمّي تسرع إليّ لاهثة وضاحكة وقائلة : "انتظرني قليلا"، ثمّ خفّت إلى المطبخ لتنتشر بعد اختفائها فيه بدقيقتين رائحة البخور وعادت إليّ وبدأت تدور حولي بكانون بخورها متمتمة فيما استسلمت أنا لنوبة عطاس شديد قالت الوالدة إنّها أخذت الشّر وذهبت ترميه بعيدا ولن يعود ثمّ دسّت في جيبي حرزا في حجم نصف الكفّ وأخذت توصيني به خيرا وتطمئنني بأنّه سيكون حصني الحصين الذي يدافع عنّي ويردّ عنّي شرّ الحاسدين ويؤنسني في طريقي ويجلب لي الرّزق.

مسنودا ومدعوما بحرزي ومعطّرا برائحة البخور، تركت البيت متظاهرا بالرّضا عمّا أتته أمّي ومعبّرا عن اعترافي بجميلها بانكبابي على يدها أقبّلها.

بدا لي وأنا أقترب من مكتبي أنّ حصن أمّي الذي نهضت من أجله باكرا هذا الصّباح واشترته لي من كاتب الحروز بثمن لا يمكن أن أجنيه أنا الكاتب العموميّ المتخرّج من كليّة الآداب بأستاذيّة في اللّغة العربيّة حتّى لو عملت يوما كاملا أحرّر فيه الشّكاية تلو الشّكاية، قلت بدا لي أنّ الحصن أتى سريعا أكله

كأنّ بخوره هاج في المدينة ولمّ لي كلّ المحتاجين إلى تحرير العرائض والشّكايات... بدا لي ذلك بمجرّد ما شاهدت على باب المحلّ أكثر من سبعة أشخاص ينتظرونني وبأيديهم ملفّات ووثائق... قدّمت اعتذاري لوصولي متأخّرا وفتحت الباب وبدأت أكتب : من مطلّقة تطلب من القاضي أن يرفّع لها في مبلغ نفقتها الشّهرية بعد أن تجسّست وتلصّصت وتأكّدت أنّ دخل طليقها ارتفع وفهمت من مطلّقات مثلها أنّ ذلك تترتّب عنه زيادة في المقدار الذي يودعه في حسابها مفارقها كلّ شهر... إلى امرأة أخرى تريد أن ترسل إلى رئيس الدّولة استعطافا ليتدخّل لفائدتها بشأن ابنها الذي أرسلته جماعة دينيّة إلى سوريا ولم تصلها عنه أخبار قديمة ولا جديدة... إلى مناضل حزبيّ قاعديّ يرغب في تحرير وشاية ضدّ فرعه الجهوي مرسَلة إلى رئيس الحزب مقدّما أدلّة وبراهين على فساد ماليّ وأخلاقيّ... إلى شيخ حديث عهد بالشّيخوخة يرغب في نشر إعلان لبيع كليته بعد أن باع قبلها منزله وصرف ثمنه في علاج زوجته ثمّ ارتفعت تكاليف العلاج ولم يخفّ المرض ولم تتدخّل الدّولة وبات الأمر يستدعي بيع شيء ثمين يبقى صاحبه بعد بيعه حيّا... إلى زوجين يرغبان في تحرير عريضة طلاق بالتّراضي يذهب بعدها وبعد موافقة القاضي كلّ منهما في سبيله دون مساءلة ولا تبعات...

إلى كهل يريد أن يستفتي السّيد مفتي الدّيار في وضعية ميراث معقّدة طالبا منه بعد ما عرض عليه ما تُرك لهم تحديد مناب كلّ واحد من الورثة...

مازال قلمي الأوّل قادرا على سكب الحبر وعلى تزريق الأوراق فيما قلم الإحتياط الممدّد أمامي ينتظر وينظر شزرا بعينه الوحيدة إلى أصابعي الماسكة بحزم وهمّة بصاحبه وإلى الأوراق تسحب بيضاء كالقطن ثمّ سرعان ما تزرقّ حتّى يصبح الأبيض فيها مجرّد خيوط ضوء ضعيفة...

تلمّست حصني من وراء القماش ثمّ أدخلت أصابعي وبسملت وداعبته ووجدتني أشكر أمّي وأشكر العزّام الذي استقبلها واهتمّ بها.

ها حصن أمّي يغنيني عن ذلك الذي عيّن نفسه مساعدا لي وأقسم أنّه سيملأ دكّاني – عفوا محلّي أو مكتبي– بالحرفاء ويملأ أدراجي وجيوبي بما يدفعون.

ممنونا للحرز ومقتنعا تماما بلاجدوى "سالم السّالم"، وقفت هامّا بإطلالة على المقهى، وقبل أن أحرّك قدمي رأيته ينتصب أمامي ضاحكا ضحكته البلهاء وضاربا بيده على كرشه العاري المنتفخ... سلّم عليّ بحرارة لم أر لها موجبا ومدّ إليّ حزمة تبيّنت أنّها بطاقات زيارة عليها اسمي مكتوبا بخطّ غليظ ورقم جوّالي وعنوان مكتبي وفي ركن من الأركان الأربعة سنبلة ملآنة قمحا.

لم أشعر بالفرح لا بمقدمه ولا ببطاقاته ولكنّ البهجة التي كانت تملأني منذ الصّباح لامتلاء مكتبي اليوم وقبضي لأوّل مرة أجورا عن تحاريري غطّت على برودي نحوه وعدم ارتياحي له.

شكرته وتركته يرتّب الحزمة فوق الطّاولة وتحرّكت في اتّجاه الباب تلميحا وتصريحا برغبتي في الخروج وتعبيرا واضحا عن لا مبالاتي به فتحرّك بدوره خارجا وهو يعدني بزيارة قريبة ويقول كلاما لم أفهم تفاصيله ولكنّه يعني في مجمله أنّ أفضاله على مكتبي ستتّضح يوما بعد يوم.

بدأت أرتشف كأس شاي وأتابع واقفا دوران الورق بين أصابع أصدقائي حين سمعت اسمي يتردّد خارج المقهى.

خرجت ألتفت باحثا عن مصدر النّداء فاذا النّادل يدعوني للإلتحاق مجدّدا بمكتبي.

5

كانت هناك.

دخلت ولم تنتظرني وجلست ولم تستأذن وبدأت في بسط أوراقها على الطّاولة. شقراء فاتنة بشعر كشعاع الشّمس وبوجه مشرق كأنّ قمرا يختبئ فيه. هبّت واقفة فانتصب أمامي جسد متناسق يضجّ صحّة ويفـــوح منه عطر أنيق لا يقاوم. رحّبت بها – لا أدري كيف رحّبت بها – وسلّمت متلعثما كمن هدّ لسانه السّكر أو كمن ارتفع معدّل ضغطه ولست أدري ما قلت بعد تلعثمي... أرسلت بعد ذلك أستعجل لها قهوة وماء باردا وبدأت أنصت إليها تحدّثني عنها كيف نشأت في عائلة تأكل من خبز المزابل وكيف أقلق أهلَها أنّها نضجت سريعا واستوت وأصبحت تمثّل خطرا وكيف هام بها ابن عمّ لها لم يكن له شغل غير التسكّع والخمر الرّديء والسّجائر الرّخيصة وصحبة السّكارى.

سارعت العائلتان لتزويجهما اتّقاء لفتنة البنت وأملا في أن يردّ الزّواج الفتى عن غيّه ويجعل منه بشرا سويّا... وبدأت مأساة أخرى. من همّ العائلة إلى نكد الزّوج ومن خوف العائلة عليها إلى خوف زوجها من فتنتها... لم يكن هذا الزّواج

هو ما تبحث عنه... لم تنقل همومها إلى والديها فهمومها مكشوفة وهي تعلم ألّا أحد سيفعل من أجلها شيئا ولا إلى عائلة زوجها المغلوبة على أمرها.

نقلت همومها هكذا في لحظة عبث عابرة إلى ورقة بروموسبور. أرسلت تشتري واحدة وقرأت على صفحة في ملحق رياضيّ بجريدة أسبوعية كلّ فرضيّات نتائج المقابلات الرياضيّة القادمة واستعانت بالصّدفة فابتسم لها الحظّ.

قال زوجها بعد أن جيء به من جلسة كحول لسماع الخبر:

– أنا أعدك أن أصبح صالحا منذ اللّحظة... القوارير التي في جوفي الآن هي القوارير الأخيرة والآخرة وبيتي ألتزم أن أعود إليه قبل أذان مغرب كلّ يوم، وأنت، لن تمسّك شياطيني بعد الآن.

وهمّ بتقبيل جبينها على رؤوس الملإ فصدّته قائلة :

– لا حاجة لي بصلاحك ولم يعد يعنيني أمر قواريرك وبيتك عد إليه متى شئت وشياطينك طالما مسّتني وطالما ترجّيتك أن تكفّها عنّي فلم تفعل.

منذ اللّحظة لك الله... لك أصحابك وكحولك ولياليك ولي حياتي الجديدة... هذه ورقة الله أرسلها إليّ ليحرّرني منك فشكرا له لأنّه أرسلها وشكرا له لأنّه لم يربطني بك بغير عقد قران سأفكّه قريبا جدّا.

وقالت أمّها :

– يمهل ولا يهمل.

واصطفّت إلى جانبها.

وقال أبوها :

– هيّا اتبعيني.

وسحبها إلى الخارج.

لم تكن حكايتها معقّدة. أنا من كنت معقّدا في حضرتها وكان صعبا أن أجد المعادلة التي تمكّنني من فهم كلامها واستيعاب فتنتها في آن.

وإذ لاحظت ارتباكي واضطرابي وهيجان عينيّ وارتجاف فمي، لم يبد عليها غضب ولا توتّر ولعلّها أدركت جيّدا أنّ لفتنتها سطوة تربك من يقترب منها أو يهمّ بها أو يسمع صوتها أو ينال من ريحها.

عمرها ستّة وعشرون عاما... انقطعت عن الدّراسة بعد إخفاقها في الباكالوريا وزوّجها أهلها لابن عمّها هذا المعوز الدّميم الذي يقضّي ليله ونهاره بين السّكر والتّسكّع... جرّبت لمرّة وحيدة لعبة البروموسبور فجلبت لها الورقة مبلغا خياليّا... عندما وصلت إلى هذا الحدّ من الحكاية استطعت أن أتنبّأ بما بعده وبدأت أكتب وغضضت بصري وأنا بصدد الكتابة حتّى لا يحيد التّحرير عن مساره أو يضمّ

كلاما مخلاّ أو خطأ في الصّياغة. لم أكن مطالبا بتقديم أيّ مبرّر للقاضي فحريفتي اليوم تريد أن تتخلّص من زوجها إنشاءً.

قالت لي:

– قل لمن سيقرأ عريضتك : "انتهى كلّ شيء، ولن أعود إليه ولو استحمّ في نهر الكوثر وخرج إليّ منه مختلفا تماما عمّا هو عليه... وليطلب تعويضا عن فراقي له ما يشاء".

لكم كان شعوري بغبائي شديدا عندما انتبهت بعد خروجها إلى أنّني مددت يدي كمتسوّل وتسلّمت منها مقابلا للعريضة التي حرّرتها... رائحتها التي تركتها في كلّ المكتب، ألم تكن ثمنا يكفي؟ سحرها الذي أربكني، ألم يكن أغلى من كلّ ما كتبت ومــن كلّ مــا سأكتب ؟ تشريفها مكتبي، ألم يكن إشهارا ودعاية يفوقان مئات المرّات إشهار ودعاية بطاقات الزّيارة التي أعدّها صديقي "أحمد" والتي أهدانيها "سالم السالم" ؟؟؟

ولكنّني طردت شعوري بالغباء بما أدخلته فيّ جرأتي على طلب رقم هاتفها من فرح وإسراعها إلى كتابته أمامي بخطّ يدها وهي تقول غامزة : "اتّــصل متى شئت".

طمأنتها بأنّني سأظلّ معها في كلّ مراحل شكواها حتّى تنال الطّلاق وتمنّيت لها ليلة حالمة... ونمت حالما.

كم سخرت منّي تلك الورقة الحمـراء ليلتها ! ضحكت، ضحكت، ضحكت حتّى سالت دموعها من فرط الضّحك وقهقهت وجلجل ضحكها في أرجاء المكتب حتّى بلغ أسماع المقهى... كانت تضحك وهي تشير بسبّابتها إليّ وإلى أوراق وتحارير وأقلام فوق مكتبي... كان كافيا أن تضحك لأفهم ما يدور في ذهنها... لم يكن صعبا تخمين الكلام الذي يختبئ في ضحكها ودموعها:

اكتب وسوّد ما شئت من الأوراق البيض وفكّر في الصّياغة والألفاظ وسبل الإقناع وروّج أنت وأصحابك أنّك بارع جدّا وعوّل قدر ما تشاء على اللّافتة والبورتريه وبطاقات الزيّارة وسورة الشّرح وحرز أمّك... ما الـذي بربّك ستجنيه بكلّ هذا ؟ كم ستجمع آخر عمرك كلّه ؟ الكتابة الرّابحة هي هذه العلامات التي كُتبت عليّ.

بدينار اشترتني صاحبتك ولم تستعن بغير صفحة من صفحات ملحق رياضيّ بجريدة أسبوعية ولم تستغرق في كتابتي غير دقائق... انظر إلى أين طرت بها.

6

منتظرا على قلق كنت أعبث ببعض االأوراق البيض وأرسم عليها رسوما لا معنى لها. كنت أفكّر بالحرفاء الكثيرين الذين سيسوقهم إليّ الرّجل صاحب الكرش المنتفخة والسّرة السّوداء العارية ويجلسهم مصطفّين على مقعد الانتظار مضطرّا إن غصّ بهم المقعد إلى جلب كراسي إضافيّة من المقهى... كنت هكذا... يتراءى لي المقعد ممتلئا من يمينه إلى يساره بطلّاب التّحارير ودرج مكتبي غاصّا هو الآخر بالأوراق النّقدية عندما سمعت ضوضاء وجلبة وأصواتا عالية وخصاما يحتدّ... قلت هي إحدى خصومات الشّارع أو إحدى مشادّات المقهى أو هي إحدى المظاهرات التي أصبحت عادة شبه يوميّة... وقفت هامّا بمغادرة المكتب لاستطلاع ما يحدث وكنت على أهبة الخروج عندما سدّ بابي جمع من الرّجال وبين أذرعهم صديقي صاحب الكرش المتدليّة لاهثا مخنوقا مادّا لسانه ككلب أنهكه العطش.

لم يكن عسيرا أن أفهم ماحدث.

لم يكن عسيرا أن أفهم أنّ هذا الذي عيّن نفسه مساعدا لي ذهب يترصّد الحرفاء أمام مكاتب الكتّاب العموميّين ليحوّل وجهتهم ويقنعهم بي وبجدوى تحاريري وأنّ زملائي ضبطوه في شارع مكاتبهم متلبّسا فأمسكوه وساقوه إليّ. لم يكن "سالم السّالم" متّهما بل كان دليل الاتّهام. لم يكن "سالم السّالم" مجرما إنّما كان أداة الجريمة. هكذا خمّنوا وهكذا أوحي إليهم... ووجدتني أقتلع سورة الشّرح من مسمارها وأقسم لهم بسرّها وعظمتها أنّني بريء ممّا ارتكب هذا المجرم وأنّني لم أحرّضه ضدّهم ولم أدفعه إلى اصطياد حرفائهم ولم أطلب منه أن يكون معي. كانت التّهم بحجم السّماء : قطع أرزاق وخيانة أخلاقيّات المهنة وانتهاك حرمة القطاع والأنانيّة التي لا تبقي ولا تذر.

طُلب إليه أن يتكلّم فتمتم قليلا ثمّ همّ بالفرار ولكنّ الأيادي التي كانت تمسكه ألزمته مكانه...

ثمّ جاء رفاقي من المقهى بعد ما تركوا أوراقهم وكؤوسهم وطالبوا الهاجمين عليّ بالصّلاة على النبيّ ووزّعوا عليهم الشّاي والماء واللّيمون وأفهموهم أن لا علاقة لي بـ"سالم السّالم" وأن لا حاجة لي إليه وأنّ ما أتاه تصرّف فرديّ يلزمه وحده وأنّهم سيمنعونه من الاقتراب من ساحة مكتبـــي. وإمعانا في التّأثير عليهم وفي امتصاص ما بقي فيهم من غضب شرع صديقي صاحب المقهى يسرد

سيرتي وفقري وطول بطالتي وما عانيت واضطراري إلى الكتابة العموميّة حلّا مؤقّتا في انتظار أن أنـال وظيفتي التي أستحقّها. وتدخّل"الفاهم عليان" الرّجل الذي رفض ذات يوم أن أشاركه مكتبه وأقاسمه المصاريف والمرابيح فهدّأ الجماعة وقال : "حصل خير... حصل خير...".

شربوا الشّاي وابتلعوا اللّيمون وتركوني أنعم بفرحة طاغية لأنّني لم أُضرب ولم أعنّف ولأنّه لا أحد منهم عبث بمكتبي وأتلف أثاثه ورماه ورماني في الشّارع.

هل يعود "سالم السّالم" ليطالبني بنصيبه ممّا دفعه لي الحرفاء الذين حوّل وجهتهم نحوي ؟

لن أنتظر عودته.

سحبت من الدّرج ما حصلت عليه وناديت "رفيق" وكلّفته بالبحث عنه وبتمكينه من كلّ ذلك المبلغ حتّى لا يعود إليّ ثانية ولا يفكّر فيّ أبدا.

7

أمسكت هاتفي بين يديّ هامّا بمخاطبة حريفتي الواقفة على باب الطّلاق والتي شجّعني قولها "اتّصل متى شئت".

للحظة اعتراني ما يشبه القلق مخافة أن تفسّر دخولي حياتها بطمعي في ثروتها التي هبطت عليها بعد أن اشترت ورقة لعب بدينار واحد وملأتها وأرسلتها ونسيت أمرها أو كادت تنساه. لن يكون من دواعي قلقي أن تربط اتّصالي بها بافتتاني واعجابي. ذلك يحدث دائما. أمّا إذا ربطت بين رغبتي فيها أو انجذابي نحوها وما أصبحت عليه من ثروة فالأمر يصبح مخجلا.

– أنت لست هكذا يا "مبروك"، وحقّك في الكرامة وفي أن تعيش في رفاهة تليق بك لن تأخذه من مطلّقة ضحك لها الحظّ ذات قما. لا نصيب لك يا "مبروك" في ثروة هبطت على غيرك هي قسمته وحده لا شريك له فيها.

لساعة أو أقلّ ظللت أعقّل نفسي وأقنعها حتّى لا تنساق وراء الطّمع ولكنّي بمجرّد أن استنفدت كلّ النّصائح وقلتُ لي كلّ ما استطعت أن أقول وجدتني أكوّن الرّقم وبدأت أستمع إلى رنين هاتف في الطّرف الآخر من المدينة وأنتظر

أن تنتبه صاحبته إلى الرّنين وتُسمعني صوتها. ألم تقل بإرادتها " اتّصل متى شئت"؟

وحين نفد صبري وأصابني اليأس جاءني همسها... كان ملائكيا... خافتا كشعاع النّجوم دافئا كشمس الرّبيع.

-أهلا.

عاد إليّ ذلك التّلعثم الذي أصابني يوم التقيتها في مكتبي وأحسست أنّها ماثلة أمامي فكأنّ صوتها يقوم مقامها. ولكنّي شحذت عزيمتي واستحضرت شجاعتي ورددت على ترحيبها بترحيب أجمل وأطول.

قالت :

-مـا بالك لا تتّصل بي ولا تكلّمني كأنّني لم أقل لك مرارا "اتّصل متى شئت"؟

-كان لطفا منك ولكنّني رجل خجول.

ضحكت.

وأمعنتْ في الضّحك حتّى خفت أن يصل صوت ضحكها إلى أمّي الممدّدة في غرفة لا تبعد عنّي إلّا مقدار أشبار.

-وأنت، ما بالك تضحكين؟

سألت ضاحكا.

–الرّجال لا يخجلون.

همس لي شيطاني قائلا:

– لعلّها تقصد أنّك لست...

ساد صمت.

ويبدو أنّـها التقطت ما همس لي به شيطاني الذي لا يفارقني فقالت:

–أعني أنّ الخجل خُلق لنا نحن النّساء أمّا أنتم فلكم القوّة والجرأة وما لا نستطيعه نحن.

وفيما خمد ذلك الوسواس وجدتني أقول لمحدّثتي:

–هل تعرفين أنّني سعيد بالتّعرف إليك ؟

لم تتردّد.

ردّت مباشرة.

–أنا أسعد يا "مبروك".

بدأت الأوراق تسّاقط.

–ذلك الزّوج كان في نعمة.

التقطت كلامي وعقّبت عليه:

–ولم يشكر، وخرج منها وسيدخلها غيره.

لا أدري لماذا اعتراني شعور بالغيرة. كأنّ قبسا من نار جهنّم التهب داخلي.

كأنّ مقبضا من حديد أمسك ببعض تلافيف روحي.

كأّنّني رأيتها تُفتكّ من بين يديّ.

كأنّ هذا الغير ماثل أمامي وعليّ أن أصدّه عن افتكاكها.

كأنّها ملك لي وحدي لا يحقّ لغيري أن يقربها أو يفكّر فيها.

وتتالت عليّ أسئلة موجعة.

من يكون هذا الغير الذي سيفوز بهذه النّعمة؟

هل خطّطت حريفتي ودبّرت وتدبّرت بديلا للرّجل الذي ستطلّقه ؟

هل سعت إلى طلاقه أو تطليقه لأنّ واحدا آخر ينتظرها ؟

لماذا كانت واثقة وهي تقول:"سيدخلها غيره"؟

ويبدو أنّ صمتي طال وأنّها فهمت سرّ طوله فأردفت :

–إن وجدت هذه النّعمة من يقدّرها.

صحتُ كطفل عثر على قطعة من نقود:

–ستجد يا سيّدتي، ستجد من يقدّر النّعمة ويقدّر صاحبة النّعمة.

وعادت إلى الضّحك.

–اسمع "مبروك"،

شعرت بحبّ كبير لهذا الاسم الذي أحمله: "مبروك ".

–نعم.

–ألقـاك غدا في مكتبك صباحا لأساهم معك في تأثيثه بحاسوب وآلة طابعة.

لم يعد الزّمن زمن الأوراق والأقلام وأنت كاتب يجب أن تكون أنيقا في كلّ شيء.

شعرت بوجهي يستحمّ في العرق.

هل هو عرق الخجل أم هو عرق المفاجأة أم هو عرق الوقوع تحت وقع المجاملة أم هو عرق كلّ ذلك مجتمعا ؟

عدت الى الصّمت برهة ثمّ قلت :

–ولكنّ ما تفعلينه كثير وهذا أثاث مكْلف وأنا أعرف أنّ ثمنه مرتفع.

–لا عليك –وضاحكة –سأعرف كيف أقسّط لك ثمنه وأقبضه شيئا فشيئا.

8

من بعيد أرسلت نظري إلى ساحة المكتب فلم ألحظ في انتظاري أحدا...

تناولت قهوتي وفتحت الباب... عطّرت المحلّ ونفضت بعض الغبار وجلست

أمتصّ سيجارتي الأولى وأقلّب عينيّ بين الأوراق البيض والقلم الرّابض حذوها

كجرو مريض منتظرا من يطعمه ويداويه وسورة الشّرح المطلّة من وراء البلّور كالمبتسمة والمقعد الطّويل الشّاغر... كنت هكذا عندما شعرت بكميّة الضّوء داخل المكتب تتضاءل كثيرا... رفعت رأسي فإذا امرأة بدينة تسدّ الباب.

– صباح الخير، قلت وأنا أنهض، تفضّلي بالدّخول.

جلست أمامي وبدأت ترغي وتصيح وتهدّد وتتوعّد ولم تفلح كلّ محاولاتي لإسكاتها أو التّخفيف من حدّة صوتها فاضطررت إلى أن أنتظر هدأة فورتها وفراغها من الكلام والصّياح أو أن يصيبها التّعب أو الملل أو الخجل.

جاست يداها قليلا بين لحمها وأثوابها ثم مدّت إليّ بطاقة هويّتها ومعها ورقة نقديّة من فئة العشر دنانير وبقدرما كنت مستاء لهيجانها بقدر ما أسعدني هذا الدّفع المسبق السّخيّ.

اعتراني بعد تفاؤلي ارتباك أحسست معه أنّ أصابعي ترتعش واضطربت قدماي واعتصر أمعائي ألم اعتاد أن يلمّ بي كلّما فاق تشنّجي أو خوفي حدّه.

قرأت البطاقة فقالت لي ذاكرتي القصيرة إنّني أعرف هذه الصّورة وهذه التّفاصيل التي تحيط بها وإنّ هذه البيانات القصيرة مرّت عليّ منذ أيّام قليلة.

وإذ سمعت الحكاية، أكّدت لي خيوطها كلام ذاكرتي، فازداد خوفي وعظم ارتباكي وخفت أن يصبح اضطرابي واضحا للعيان. هذه السّيدة لم تدخل مكتبي ولكنّ بطاقتها كانت أمامي وبين يديّ منذ أيّام !!!

أحسست أنّني هويت في جبّ لا قاع له وأنّهّ عليّ أن أستلّ نفسي بنفسي وأن أعاود الصّعود إلى السّطح.

خوفا وتملّقا لا كرما ولا من باب حسن الضّيافة طلبت لحريفتي التي زارتني بطاقتها قبل أن تشرّف هي نفسها مكتبي ماء باردا وعصير ليمون ووعدتها أنّني سأحرّر لها عريضة تقنع القاضي بتحيّل زوجها وشريكته وبحقّها في تتبّعه وتتبّعها حتّى يعود إليها اعتبارها المسلوب.

سيّدي رئيس المحكمة،

أنا "الجازية بنت علي بن علي الشّحروري" تحيّل عليّ زوجي "مسعود بن مسعود بن مبروك" وتحيّل أيضا على القانون وعلى هيبتكم وهيبة المحكمة إذ اختلس بطاقة هويّتي واكترى امرأة أفادت أنّها امرأته وأنّها توافقه تماما على الطّلاق وأنّها لا تطلب جرّاء ذلك شيئا.

أريد سيّدي تتبّعه لأنّه غشّني وتتبّعها لأنّها انتحلت صفتي.

عندما قرأت لها ما كتبت نهضت بخفّة لا تناسب بدانتها ودارت واقتربت منّي وأمسكت بيافطة قميصي وسألتني مزمجرة وهي تؤرجح رقبتي في كلّ الاتّجاهات.

– ألست أنت من كتب لهما عريضة الطّلاق بالتّراضي ؟

اختنقت وبدأت أسعل ولست أدري أمن حسن حظّي أم من سوءه أن لم يمرّ وقتها أمام المكتب أحد لينقذني.

تركتني أهوي على سطح الطّاولة وعادت إلى مكانها سائلة من جديد:

– أنت ؟

–سيّدة "جازية" أنا أخطأت خطأ لم أتعمّده.

المرأة التي تقصدينها جاءتني فعلا ومدّت إليّ بطاقتك فعلا ولم يكن يظهر من وجهها شيء ولم يكن ممكنا أن أقارن بين الوجه والصّورة ولم ينتبني الشّك لثانية أنّها أنت وتأكيدا لاعتذاري سأحرّر الآن وبالتّوازي شكاية ضدّ زوجك وصاحبته أشرح فيها للمحكمة ما تعرّضت إليه من تحيّل وما أجبرت عليه من باطل وما ألحقته بك من ضرر غير مقصود.

– لولا قريبة لي تشتغل في مكاتب االمحكمة لما انتبهت إلى أنّني قاب قوس من طلاق أبيض لا أنال بموجبه سكنا ولا نفقة ولكنّي لن أتركه يهنأ ولن أتركها قبل أن تُساق إلى السّجن.

طويت الشّكاية ووضعتها داخل ظرف أحمر وسلّمتها للسّيدة التي كانت ستخنقني مكرّرا اعتذاري وأعدت إليها ورقتها النّقدية مقسما بأغلظ الأيمان أنّني لا أستحقّ عمّا كتبت ملّيما واحدا.

كانت على أهبة الخروج وكنت بصدد تكرار اعتذاري عندما سدّت الباب امراة أخرى ودخلت باكية تولول وتقول كلاما لم يفهم منّا أحد تفاصيله ولكنّ معناه أنّها في ورطة وأنّ باب السّجن مشرع أمامها يناديها.

–اجلسي يا محترمة وكفّي عن هذا النّحيب، نحن في مكتب بجانبه مقهى تطلّ على المدينة، بماذا أجيب الذين سيسألون عن سبب بكائك وعويلك ؟ أرجوك اهدئي ودعيني أفهم ما تقولين.

–غرّر بي أحدهم أيّها الكاتب.

كدت أنفجر ضحكا.

وضحكت في صمت المرأة التي كانت ستخنقني.

–كيف يغرّر رجل بواحدة في مثل عمرك ؟

لست غرّة حتى يغرّر بك أيّ كان.

–لم تفهمني.

أغراني وأوقعني في شراكه وأقنعني أن أنتحل صفة امرأته وأرضى بالطّلاق دون طلب أيّ مستحقّات وأن أمثل معه أمام القاضي وأطلب فراقا لا ينوبني بعده ملّيم واحد ثمّ جاءني اليوم من يخبرني أنّ زوجته اك اك اك اكتشـ اكتشفت الـحيييييييلللللةةةة.

كانت الحريفة الأولى قد أطبقت على رقبة المرأة الموعودة بالسّجن وبدأت ترجّها رجّا خشيت معه أن تهوي ميّتة.

تلمّست رقبتي وحمدت الله على أنّ "الجازية" كانت رحيمة بي ولو أمسكتني كما أمسكت "ضرّتها" لكنت الآن في عداد من يُترحّم عليهم.

وصل الضّجيج إلى المقهى فتداعى من فيها إلى مكتبي وفتح الحرفاء تحقيقا أعيدت بمقتضاه على أسماعهم الحكاية من أوّلها... أنصتوا إلى "الجازية" تروي حكايتها مع زوجها منذ يومها الأوّل معه وصولا إلى اليوم الذي اكتشفت فيه أنّه على أهبة تطليقها دون علم منها وإلى وعيدها له ولصاحبته بالسّجن وبالفضيحة واستمعوا إلى الأخرى تروي الحكاية من يوم تعرّف عليها زوج "الجازية" وراودها وأصبح يعاشرها إلى يوم أقنعها بتغطية

وجهها وانتحال صفة امرأته وطلب الطّلاق وصولا إلى مجيئها اليوم إليّ لتحرّر ما مفاده أنّه غُرّر بها وأنّها متراجعة تماما عمّا صدر منها.

أين أنت يـــا صاحب فكرة المحلّ الذي سيمطرني سقفه ذهبا ؟ أين أنت يا أيّها المدّعي أنّ المحلّ سيربطني بعلاقات مع أعيان البلد وسيرفع ذكري وسيعلي شأني؟

أينك يا حصن أمّي ؟

افعلي شيئا يا سورة الشّرح.

استمعت مع الجمهور إلى الحكايتين كأنّني لا أعرفهما وساهمت معهم كواحد منهم في تهدئة الضّرّتين وحمّلت معهم المسؤوليّة كاملة إلى الزّوج الذي تحيّل على الأولى وغشّ الثّانية واحتال عليّ مستعينا بقدرته على الشّيطنة وبجرأته غير العاديّة وبكمشة أوراق نقديّة أغرى بها المرأة التي غطّى لها وجهها لتلعب دور زوجته القانونيّة.

تركنا بين خروج الإثنتين مسافة نصف ساعة حتّى لا يجمعهما الطّريق وتتجدّد الملحمة ولملمت بعد فراغ مكتبي من المتطفّلين أوراقي وأسرعت نحو المحكمة أبرّئ ذمّتي ممّا علق بي خطأ أو حمقا وأقدّم اعتذاري أوّلا وتظلّمي

ثانيا عقابا لي واحتياطا من سطوة القانون وانتصارا لتلك التي أوشكت على خنقي.

–أنت "مبروك"؟

قلت:

– نعم.

نظر إلى كدس من الأوراق مبثوث فوق مكتبه... فّتش فيه قليلا ثمّ أشار إلى واحدة وهو يقول بنصف صوت:

–خذ، هذا استدعاء، أنت مطلوب لتمثل أمام السّـيّد الرّئيس.

–رئيس الجمهورية؟

–لا طبعا، رئيس المحكمة.

–بخصوص ماذا من فضلك ؟

ستعرف يوم... وقرأ التّاريخ وأضاف:

– الخميس القادم.

9

بدا على أمّي الفزع بمجرّد أن رأتني أدخل مجرجرا قدميّ وعلى وجهي اصفرار وفي عينيّ ذبول وأرتمي على السّرير وأطلق تنهيدة كأنّها شخير عميق.

– كنت على يقين أنّ الحرز سيسهّل لك الرّزق وسيملأ محلّك وسيرفع من ذكرك... أنت مرهق لأنّك عملت كثيرا... سأعود لأجلب لك أكلك وشايك ولتحدّثني بالتّفصيل عمّا فعل الكتيّب الصّغير في الكاتب الكبير.

لم أعلّق. ابتسمت ابتسامة بلهاء وأخبرتها بلطف أنّ النّوم يغلبني وأنّه عليّ أن أطيعه ولو قليلا.

رأسي يدور... يدور رأسي... رأسي الآن شبابيك تطلّ على بعضها بعضا ويطلّ من وراء الشّبابيك "سالم السّالم" و"الجازية" وضرّتها وزوج الإثنتين وكاتب المحكمة والقاضي الذي سيسائلني لا أدري بخصوص ماذا بالضّبط وحريفتي التي سخر منها زوجها ورمى بها إلى الشّارع قبل أن يتوكّل على الله وأمّي وكاتب الحرز وكانون البخور... لكلّ كان شبّاك ووحدها ضرّة "الجازية" كانت تطلّ من شبّاكين برأس مغطّى من هنا وبآخر سافر من هناك.

– ما الذي فعلته بنفسك يا "مبروك"؟

ألم يكن الأجدى أن تكتفي بدنانير أمّك وجلسات مقهاك وحبال أحلامك وتظلّ بعيدا عن هذا العالم الموبوء الذي شجّعك على اقتحامه أصحابك ثمّ ما لبثوا أن انفضّوا من حولك وتركوك قائما ؟

جاءت أمّك. وضعت الأكل وأقسمت عليك أن تنهض وأن تأكل. نهضت ولكنّك لم تستطع أن تبتلع شيئا. بدا لك أنّها تنظر في جيوبك ولعلّها تتخيّلها الآن غاصّة بالأوراق النقديّة. أشفقت عليها. أنت هكذا لا تذكر يوما أنّك اشتكيت أمامها وجعا أو تعبا أو حاجة. بصعوبة كنت تتكلّم ولكنّك قلت:

–كان يوما متعبا أمّي، حرفاء كثيرون وكتابة من الصّباح إلى المساء.

ابتسمت في وجهك ودعت بطول العمر للشّيخ كاتب الحروز وبالنّجاح لك وخرجت إلى المطبخ توقد كانونا وتحرق البخور وهي تتمتم وتحمدل وتحوقل.

وقفت أمامه.

مرتعدا كنت.

كم كان كبيرا رأسه الأصلع.

كتفاه كانتا عريضتين ووجهه الحليق كان منتفخا كأنّ تحته كرة أو بالونة.

رقبته القصيرة كانت ممتلئة وكدس من الملفّات الحمـراء والخضراء والزّرقاء كان يصطفّ أمامه وبين يديه كان ملفّك الأزرق.

سألك :

–أنت "مبروك"؟

– نعم سيّدي.

–لديك ترخيص لمحلّك؟

– لديّ سيّدي.

–أرنيه.

ارتبكت يداك وهي تغوص في جيوبك وتخرج الورقة ثمّ تمدّها إلى عون الشّرطة الواقف بينكما. قرأه دون تمعّن وأعاده إليك.

– دعوتك لأشكرك سيّد «مبروك"، العرائض التي تأتينا من مكتبك هذه الأيّام واضحة جدّا ومكتوبة بصياغة لا لبس فيها ولا غموض ولا تعقيد. الحقيقة أنّك سهّلت علينا العمل كثيرا.

– هذا من ذوقك العالي سيّدي الرّئيس. سأكون عند حسن ظنّكم دائما.

وسمح لك بالذّهاب.

واقفة عند رأسك، سمعتها تقول:

– لم تتخلّ عن شيء من طباع صباك، تضحك دائما آخر نومك.

نهضتَ، أتيتَ على الأكل، وعاودت الخروج.

10

جاست أصابعي داخل جيبي الأيمن فلامست كتيّب أمّي ولامـست يدي الأخرى جيبي الآخر فألفت فيه استدعاء المحكمة. اعتراني فجأة غضب على "رفيق" صاحبي. أليس هو من كان الأمّار بمشروع الكتابة للعموم ؟

بدأت أستعيد كيف أطعته. بدأت أتذكّر وأنا في طريقي إلى المكتب كيف انسقت وراء اقتراحه. هو اقترح وأنا ما فكّرت إلّا قليلا ثمّ استجبت. كنّا على قلق وكنّا على غضب وكنّا على وقع حلقة جديدة من حلقات مسلسل الفشل وكنّا نحاول يومها أن ننسى الأمر بالخمر.

تحوّل غضبي من "رفيق" إليّ، إلى نفسي التي أقنعتني ذلك اليوم أنّ الحلّ في بضعة قوارير أبتلعها فتعيد إليّ ثقتي بنفسي وتنسيني مرارة فشلي.

أكنت أطعت "رفيق" لأنّني كنت بنصف عقل؟ أكنت قطعا سأرفض لو كنت في صحوي؟ أكان "رفيق" سيسوق إليّ اقتراحه أو سيفكّر فيه لو لم نكن في ساعة نقصت فيها العقول؟ لاحت لي ساحة المقهى والمكتب ولم يخفّف اقترابي منهما من تواتر الأسئلة ومن استمرار الغضب. لم أقتنع بغضبي على الخمر كما لم أقتنع قبل ذلك بغضبي على "رفيق" ووجدت غضبي يتحوّل إلى فشلي.

لو كنت وُفّقت لما كنت محطّ شفقة ومحطّ اقتراحات تافهة ولما كنت أنتظر ما يجود به حرفاء وحريفات ميزة أغلبهم الحمق والبلاهة والتّحيّل والعهر. طلبت من النّادل قهوة سوداء بلا سكّر وانتحيت من المقهى ركنا وبدأت أمصّ الدّخان. لم يقنعني غضبي على فشلي. لا أحد يحبّ أن يفشل. لا أحـــد يســعى بقدميه إلى الفشل. مع ارتشافي أوّل جرعة تحوّل سخطي مــن فشلي إلى الذين هيّؤوه لي. لو كنت انتدبت أستاذا بإحدى المعاهد بعد تخرّجي لما انتهيت إلى هــذا المصير المرير. لماذا إذن درست وراجعت وامتُحنت وكابدت وعانيت وسهرت وتخرّجت ؟ استقرّ غضبي هناك، على الذين صنعوا فشلي وفشل الآلاف مثلي وساقوني إلى مصير لا علاقة له بما كنت أسعى إليه، مصير أعاشر فيه المتحيّلين وأستعين فيه بالحروز !

–أهلا "مبروك"، تبدو منشرحا؟

لا أدري بأيّ عين رأى "انشراحي" ؟ لا أدري كيف بدوت له منشرحا ؟ أتخالف ملامحُنا دواخلَنا أحيانا؟ أيرانا الآخرون على غير حقائقنا أم هو النّفاق الذي تعوّدنا عليه ؟

– نعم، منشرح أنا جدّا.

– ستفتح محلّك بعد القهوة ؟

اجتنابا للدّخول في التّفاصيل وأنا من الذين يكرهون لماذا وكيف ومتى وكم وبكم وإلى أين، قلت :

– نعم، الآن.

– سيكون لديك بعد ربع ساعة واحد من أصهار العائلة، اهتمّ به كثيرا من فضلك وخذ منه جزاء تحريرك فوق ما تريد.

قال ذلك و كوّن رقما على هاتفه وخاطب صهره :

–السّلام عليكم، صديقي "مبروك" في انتظارك الآن.

لم تنتظر كثيرا.

نزل كهل خمسينيّ ملتح يرتدي جلبابا أبيض واقترب منّا وألقى السّلام وهو يبتسم.

– أحبّ أن أرسل خطابا إلى بعض الوزراء وإلى رئيس الحزب... نفس الخطاب من فضلك مع الإكتفاء بتغيير المرسل إليه في كلّ مرّة.

وكأنّه يريد أن يسهّل لي الأمر وأن ييسّر لصهره الحديث، تدخّل "معزّ" قائلا:

– اسمع "مبروك"، يريد صهري "مخلوف" –وأشار إليه– أن يطلب من الدّولة الجديدة تعويضا عن سنوات سجنه الخمس وما سبقها وما تلاها من

ملاحقات وعذابات، يريد أن ينال تعويضا سخيّا عن فترة إحالته على البطالة وما عانته خلالها عائلته من جوع ومن إهانة... ثمّ حرّك سبّابته في اتّجاهي وقال كأنّه يخاطب الدّولة فعلا :

– يجب أن ينال مبلغا محترما عن سنوات نضاله، لقد كان شبل الحركة وقد جرّه إلى السّجن أن ضبطت لديه قائمة لمنخرطين تبرّعوا لمشاريعنا بمبالغ مختلفة... أُدخل السّجن وفُصل عن عمله ولو لم يُحرِق ذلك الشّابّ البوزيديّ نفسه ولو لم تأت الثّورة لظلّ ملاحَقا ولعاش عاطلا بائسا يائسا.

استمعت إلى صديقي واستمعت بعده إلى صهره "مخلوف" يروي انتماءه إلى الحزب ونشاطه فيه وضبطه متلبّسا ودخوله السّجن وبطالته ويحثّني على أن أفصّل القول وأن أطالب له بحقّه في العودة إلى عمله وفي مبلغ ماليّ يساوي الأجور والمنح التي حُرم منها طيلة سنوات بطالته وأن أطالب له أيضا بوظيفة محترمة ينالها ابنه تعويضا عن سنوات الجمر...

كتبت، كتبت، كتبت، سجّلت الوارد والشّارد وأرفقت الشّكوى بنسخة من حكم المحكمة وبنسخة من بطاقة هويّته وبطاقة هويّة ابنه الذي ستوظّفه الدّولة لأنّ أباه سُجن وتركت أمر تقدير التّعويض لرئيس الحركة ولوزراء الدّولة الجديدة... ولا أدري لماذا وجدتني أشبّه الكاتب العموميّ بعامل النّظافة، كلاهما يحمل

أوساخ النّاس مضطرّا، كلاهما مُجبر على أن يشتمّ الرّوائح العفنة، كلاهما يأكل خبزه من تلكم الأوســاخ ومن تلكم الرّوائح.

تذكّرت صديقا لي يدعى "منتصر الفأر" ويبدو أنّ "الفـأر " كناية ألحقت به لضآلة حجمه وخفّة حركته، قُبض عليه ونحن في سنتنا الجامعيّة الأخيرة بتهمة الإنتماء إلى حزب غير مرخّص فيه والمشاركة في نشاط يعادي الدّولة وأمنها. أدخل السّجن ولكنّه لم يمض فيه أكثر من ستّة أشهر، زرناه في بيته أيّام سراحه فوجدناه راضيا مطمئنّا ليس على شفتيه غير الفخر بهذا الابتلاء الذي خصّه به الله تعالى مع ثلّة من إخوانه الأصفيـاء. لا أدري لماذا سكنتني فجأة رغبة في أن أرى "منتصر الفأر" لأسأله كم نال مقابل ذلك الابتلاء. لا شكّ في أنّ منابه كان وفيرا ولا شكّ في أنّه الآن واحـد مـــــن كبار الموظّفين. التفتّ إلى الرّجل وسألته :

– هل تعرف" منتصر الفأر"؟

– "منتصر "، تعرفه؟

كتمت غيظي.

– أنا أسألك أنت إن كنت تعرفه.

– آه، سُجنّا معا وكنّا هكذا –وقرن سبّابته بوسطاه ووضعهما بين عينيّ.

– وأين يمكن أن أعثر عليه؟

–اطمئنّ، يأتيك الجواب قريبا جدّا إن شاء الله.

11

لم أُشعر أحدا بالاستدعاء الذي وُجّه إليّ.

وحدي سأساءل إن كان الأمر مجرّد مساءلة ووحدي سأعاقب إن استوجب الأمر العقاب وسار على خلاف ما رأيت في حُلمي وعليّ وحدي أن أعيش توتّر الانتظار والخوف من مآل الحكاية.

ما الحكاية ؟

لا أظنّها تخرج عن الحيلة التي دبّرها لي الزّوج رجل الضّرّتيْن، سأقول للقاضي عذرا وسأتحمّل أخطاء سذاجتي.

تلمّست ملابسي وأنا أقترب من المحكمة لأتثبّت من أنّني لست في وضع عراء. هكذا أحسست.

أحسست أنّني أسير عاريا وانّ الكلّ يتفحّص لحمي ويقرأ خوفي ويسمع قلبي ويهزأ منّي.

وقعت يدي وأنا أتثبّت في جيوب ملابسي على حرز أمّي، اعتصرته في كفّي ورجوته أن يكون معي.

مددت الورقة إلى الكاتب الذي سلّمني إيّاها منذ أيّام فأخذها وغاب قليلا ثمّ عاد ليقول لي:

– اتبعني.

– صباح الخير، قلت للرّجل الجالس قبالتي داخل كرسيّ دوّار وثير.

لم أسمع على تحيّتي ردّا.

أَرَدَّ الرّجل ذو الرّأس الكبير والرّقبة المكتنزة والأوداج المنتفخة المنشغل بتقليب بصره بيني وبين كدس أوراق وملفّات منتصب أمامه أم لم يردّ؟

ذلك ما لم أتبيّنه.

لم يستغرق التّفتيش كثيرا وسرعان ما استلّ واحدة مسحها سريعا بعينيه كأنّه يقول إنّه قرأها مرارا وحفظها عن ظهر قلب ثمّ طلب بطاقة هويّتي.

مددتها صامتا.

وحده فمي كان صامتا.

بدني الآخر كان ينطق ارتعاشا وارتجافا.

–أنت كتبت هذا ؟

– ربِّ افكك عقدة من لساني، قلتها في سرّي.

كان يقرأ وينظر إليّ عاضّا على شفتيه كأنّه يكتم غيظا شديدا وكنت أجهد نفسي لأتذكّر أيّ ورقة حرّرت أثارت انتباه القاضي فدعاني إليه ثمّ بدأ يقلّب وجهه بيني وبينه مغتاظا.

لم يصدّق الرّئيس حيرتي وكدت لا أصدّق أنّ الورقة من تحريري لولا أنّ الخطّ خطّي والأسلوب أسلوبي... وحدها تلك الألفاظ النّابية التي تضمّنها التّحرير كانت نشازا، لم تكن فيّ ولا في طبعي ولا من عاداتي.

عندما اكتملت الصّورة وتبيّنت أنّ القاضي على حقّ وأنّني وضعت نفسي في جريمة يعاقب عليها القانون، اكتفيت بأن طلبت العفو علنًا ولعنت سرّا ذلك اليوم الأشعث وذلك الرّجل الأغبر الذي اشتراني بأربع قوارير جعّة يوم إعلان نتائج مناظرة انتداب الأساتذة.

لعنت بقسوة ذلك الرّجل الذي ألحّ عليّ لأحرّر له طلبا يرسله إلى القاضي يلتمس فيه تخفيض منحة النّفقة الشّهريّة الذي عليه أن يدفعه لطليقته آخر كلّ شهر.

تحت وقع فشلي وخيبتي وما شربت وإلحاحه كتبت ما لا يليق ونعتّ الطّليقة بنعوت بذيئة جدّا كأنّ بيني وبينها عداوات قرون من الزّمن.

"سيّدي الرّئيس: إنّ هذه العاهرة تطلب التّرفيع في نفقتها لا لحاجتها إليها بل لإذلالي وابتزازي وتعجيزي وجرّي إلى السّجن ولكنّي لن أسجَن من أجل امرأة فاسدة يأكل من لحمها برضاها من دبّ وهبّ وإنّي لأعوّل على تفهّمكم لردّها عن غيّها ورفض طلبها ويكفيها يا سيّدي ما تجنيه من قاعة حلاقتها ومن تَـمَوْمُسِها المعلَن للعموم.

كن بي رحيما يا أيّها الحاكم وكفّ عنّي بلاء هذه الـ....ة."

الآن أذكر أنّي كتبت في ما كتبت هذه الجمل، هل كنت منفعلا؟

أم كنت مخمورا؟ أم كنت منفعلا ومخمورا ؟ أم كنت وقتها ناقص عقل ؟

حرّرت الورقة فتسلّمها الرّجل ودسّها في ظرف وسلّمها إلى كتابة المحكمة فنودي ونوديت.

رفع إليّ الرّئيس رأسه وقال دون اكتراث :

– أربع وعشرون ساعة فقط حتّى لا تعود إلى مثل هذا القذف ولا تقترب من الكتابة وأنت بلا عقل.

وضغط على زرّ.

ولم أستوعب كلامه إلّا بعد أن جاء عون أمن يبدو أنّه كان منتصبا على مرمى صوت الزّر أو أنّ خيط الزّرّ كان موصولا بإحدى ساقيه، وساقني أمامه.

كم خفت حينها أن يراني أحد.

مشيت في الممرّ الطّويل مطأطئا مُسْرِعا ومُسَرِّعا معي مشية سجّاني.

دفعني داخل غرفة غاصّة بسجناء آخرين اعترتني سريعا خشية من أن يكون من بينهم من لي به صلة مّا.

ثمّ جاءت سيّارة وانفتح بابها الخلفيّ على باب خارجيّ لتلك الغرفة وبدأنا نصعد واحدا واحدا.

اقتضى الأمر أن أقف ساعة بباب السّجن أسلّم فيها جوّالي ووثائقي ونقودي وأنتظر أن يملأ عون بطاقة صفراء طويلة ببياناتي ثمّ مررت إلى بهو واسع يعجّ بخلق الله.

– سي "مبروك".

– يا الله ! قلت في نفسي، سي "مبروك" هنا أيضا.

من أعرف ومن يعرفني في هذا العالم الذي لا علاقة لي به ولم أزره من قبل وليس لي فيه قريب ولا صديق؟

وأسرع إليّ صاحب الصّوت يحتضنني.

خنقتني رائحة الجوارب واستللت رأسي من بين ذراعيه لأدخل في نوبة عطاس شديد.

-اعذرني "مبروك".

لم يكن في نيّتي أن ألحق بك أيّ ضرر ولم أكن أرغب في غير خدمتك ولم أكن أتوقّع أنّهم على تلك الدّرجة من الجشع.

أنا لم أفعل يومها سوى أن دللت الحرفاء عليك، ولكن، قل لي ماذا جاء بك إلى السّجن ؟ لا تقل إنّني السّبب؟

وأنفي بين ابهامي وسبّابتي أجبته:

-لا.

-تعال معي وحدّثني.

قادني إلى سريره وهو يقول :

- من حسن حظّك أنّ لا أحد معي في السّرير، سنتقاسمه.

انفجر عطاسي من جديد وبدأت أفكّر كيف سأقضي هذه الأربع وعشرين ساعة مختنقا برائحة الجوارب وروائح السّجن.

تركت بيني وبين "سالم السّالم" مسافة وحافظت على أنفي بين أصابعي ولكنّه اقترب منّي وبحركة من يده حرّر أنفي من قبضتي وهو يقول:

–ستتعوّد، حدّثني الآن لماذا وكيف جيء بك إلينا.

لم تكن لي رغبة في الكلام ولكنّني تحت إلحاحه لخّصت له ما جرى يوم ظهرت النّتائج وآويت إلى حانة اصطادني فيها رجل فكتبت له تحت وقع الخمر والغضب تحريرا ضمّنته كلاما نابيا في طليقته.

12

لم يجد النّوم سبيلا إلى أيّ منّا.

نام كلّ من في السّجن ووحدي بقيت ساهرا مع أصوات الشّخير والرّوائح المقزّزة ووخز النّاموس وضغط الحرارة.

كان طويلا ليلي.

لم أستطع أن أطوّح بعيدا وأن أذهب بخيالي في أيّ اتّجاه يلهيني عمّا أنا فيه فبقيت أعدّ الدّقائق منتظرا على جمر أن يهلّ النّهار الجديد وتقترب ساعة الخلاص من العقوبة.

ليل أمّي أيضا كان طويلا.

ليل "رفيق" كان بنفس الطّول تقريبا. لم أعد إلى البيت ولم أكن في أيّ من الأماكن التي اعتدت التردّد عليها ولا مع أيّ واحد من الذين تربطني بهم

صلات متينة. جاب المقاهي والحانات والشّوارع ومراكز الشّرطة وحاول الاتّصال عشرات المرّات ولم يهتد إلى أيّ سبيل ترشده إليّ.

هي أيضا ليلها كان طويـــلا.

حريفتي التي ربحت الملايين بورقة ثمنها دينار واحد أصرّت ليلتها على ندائي ولمّا لم ألبّ النّداء زاد اصرارها وظلّت تلحّ ولم تفهم لماذا كان جوّالي مغلقا باستمرار.

أربع وعشرون ساعة.

كم هو منافق هذا الزّمن.

يظهر ما لا يبطن.

يمرّ عام كوميض البرق.

وتتمهّل ساعات معدودة حتّى لا يكاد يظهر لها آخر وحتّى تكاد تطلع فيها الرّوح.

ينكمش شهر كامل بأيّامه ولياليه الثّلاثين حتّى كأنّه يوم ينتهي لم يبدأ أصلا ويتمطّط يوم ويطول حتّى تكاد تنبت فيه في الواحد منّا كلّ أمراض الدّنيا.

ذلك القاضي، هل كان رحيما بي ؟

ألم يكن يمكنه أن يحبسني شهرا كاملا ؟ أو قل أشهرا ؟

شكرا له لأنّه احترمني وقدّر أنّني رجل نظيف لا سوابق لي وأنّني كتبت ما كتبت تحت وقع الخيبة والكحول وأنّني لا أعرف تلك المرأة التي قذفتها ولا أنوي أن أعرفها.

سألتني أمّي عن سرّ اختفائي ففبركت لها حكاية لا رابط فيها وأسكتّها بقبلة وبافتعال الجوع وطلب الأكل فصدّقت الحكاية وتلذّذت القبلة وأحضرت الأكل.

وسألني "رفيق" عن سرّ اختفائي كلّ هذا الوقت فحدّثته بما جرى لي وقد كنت في حاجة إلى من يسمعني وإلى أن أروي ما جرى لي من لحظة دخولي المحكمة إلى لحظة خروجي من الحبس.

كنت بحاجة إلى أن أروي رحلة الأربع والعشرين ساعة حتّى أصدّق أنّ الأمر انتهى وأصبح في طيّ الماضي.

وسألتني صاحبتي الواقفة على أبواب الطّلاق عن سرّ بقاء هاتفي خارج الخدمة لمدّة فاقت نهارا وليلة فوعدتها بلقاء قريب.

13

مرّت من الصّبيحة ساعتان ولم يطرق باب مكتبي أحد.

أخذت أصبّ قلقي في قهوتي وسجائري.

احتسيت كثيرا من الكؤوس حتّى أحسست أنّ معدتي صعدت إلى حنجرتي ومصصت الدّخان حتّى أحسست أنّ صدري يضيق وأنّ تنفّسي أصبح عسيرا.

ركبني شكّ في أن يكون "سالم السّالم" قد وقف على رأس الطّريق وحوّل وجهة الحرفاء نحو كتّاب عموميّين آخرين وصرف عنّي رزقي.

سكنني ذلك الشّكّ حتّى كدت أصدّقه ولو مرّ من أمامي لحظتها "سالم السّالم" لفعلت به ما فعلت "الجازية" بي وبضرّتها يوم جاءتني حانقة ولأمسكته من رقبته وخنقته.

قرّرت أن أغلق المكتب وأن أعود إلى البيت لأتمدّد أمام التّلفزة وأبحث عن فيلم هزليّ يسلّيني قليلا وينسيني رداءة هذا اليوم.

نهضت هامّا بالمغادرة لولا أن انتصب على عتبة الباب شابّ أبيض سمين وحيّاني واستأذن في الدّخول.

أيّ مشكلة ألمّت بهذا الشّابّ وأرسلته إلى مكتبي ليحرّر شكوى؟ لا يبدو معدما ولا عاطلا ولا متزوّجا...

-مرحبا بك.

-لا أظنّك ستسخر منّي ؟

-ولماذا أسخر ؟ ذلك ليس في طبعي أصلا.

-ليست لي شكوى ولا أرغب في تحرير عريضة ولا في ملء استمارة ولا في كتابة عقد أو التزام ولكنّي جئتك لطلب مختلف.

-مرحبا بكلّ مطالبك.

سأحضر بعد ثلاثة أيّام مهرجانا شعريّا ولديّ قصيدة أتعبتني، جئتك لتساعدني، نصلحها ونكملها حتّى تصبح طويلة وبلا أخطاء وفيها من التّأثير ما يجلب تعاطف الجمهور.

لم يكن كافيا أن أبتسم.

ضحكت.

-القصيدة قصيدتك ولا أرى لي دخلا فيها.

-ولكنّك كاتب ولك بالعربيّة وآدابها صلة.

–ولماذا تصرّ على حضور هذا المهرجان إذا كانت قصيدتك تأبى أن تكتمل ؟

سأكون معك صريحا : –أنتم الكتّاب العموميّون تحفظون أسرار النّاس – لي صديقة فايسبوكيّة شاعرة ستكون حاضرة هناك، هي فرصتنا لنلتقي، أنا وهي نكتب الشّعر على جداريْنا وأنا وهي دُعينا لنحضر التّظاهرة ولنلقي قصيدتيْن على مسمع ومرأى من الجمهور.

لم يكن كافيا أن أضحك.

قهقهت.

–اقرأ لي ما كتبت.

سحب من جيبه العلويّ الأيسر ورقة ونظر إليّ كأنّه يقــول لي " أنصت مليّا وإيّاك أن لا تنتبه ".

وبدأ يقرأ:

–على وجنتيك احمرار خفيف،

وفي شفتيك أعذب بسمة،

حرام عليك تمنعينني قبلة،

أهذا تريْنه عدلا ؟

أهذي تريْنها قِسمة؟

ووقف منفعلا هامّا بمواصلة إلقائه موجّها إليّ نظره كأنّه يتفحّصني وسبّابته كأنّه يتّهمني.

أوقفته بحركة من يدي وسألته:

–العالم ملتهب ومستعر: حروب وفتن ومجاعات وثورات وأرواح تسّاقط كالذّباب ودواعش يذبحون الأبرياء وأزمات اقتصادية وفتيات في عمر الزّهور يُجنّدن لتنكحهنّ كلاب مسعورة وأنت تكتب منفعلا عن وجنتيْن وشفتين ولم تر حراما غير هذه القبلة التي منعتك منها حبيبتك.

أنا أيضا انفعلت.

وقفت ورفعت في وجهه صوتي وأغلظت له القول.

–قل إنّك عاجز عن اتمام قصيدتي وإصلاحها وتطويرها حتّى تصبح قابلة للإلقاء أمام جمهور غفير في مهرجان شعريّ كبير.

–الشّعر ليس من اهتمامي وإن كنت درسته وأنا على يقين أن لا أحد سيلتفت إلى ما تقول. أتعتقد أنّ الوقت الآن وقت غزل وشفاه وقُبَل ؟

أمازال هناك رجل يأسف ويتحسّر لأنّ واحدة منعته قبلة؟

أهذا كلّ اهتمامك ؟

-أنت لا تفهم الشّعر.

-وأنت لا تفهم الواقع.

هذه هي التّهمة الثّانية التي يوجّهها إليّ واثقا من نفسه هذا الأبيض الأحمق.

-ولكنّي صريح معك: لا أحبّ أن أهدر فرصة لقائي بصديقتي الشّاعرة، هي أيضا لا تحبّ أن تضيع الفرصة. أليس هذا هو الواقع ؟ أهناك واقع آخر غير هذا ؟

-هذا واقعك أنت، أنا أتحدّث عمّا يجري وعن كبريات القضايا وعمّا يشغل النّاس... قل لي، لمن قرأت من الشّعراء ؟

-لكثيرين.

-لمن مثلا ؟

لم يجبني.

لم يستحضر اسم شاعر واحد.

-ماذا كتبت من شعر عدا هذا المقطع ؟

تجوّل في صفحتي وستجد قصائدي تملأ الدّنيا وتشغل النّاس، هي قصيرة لا تتعدّى غالبا أربعة أسطر ولكنّها كثيرة تجاوز المائة.

-لا أنصحك أن تستهلّ ظهورك الشّعريّ بما أسمعتنيه الآن.

قال مطأطئا وحزينا:

-خيّبت ظنّي ولا شكّ في أنّك خيّبت ظنّ صديقتي الشّاعرة.

ثمّ التفت إليّ يسألني :

-هلّا بحثت لي عن قصيدة تصلح لهذا المهرجان الكبير الذي دعيت إليه؟

لم يكن كافيا أن أقهقه.

جلجلت ضحكتي.

قمت واتّجهت نحو الباب فنهض الشّاعر الأبيض السّمين وتبعني.

أغلقت المحلّ وتركته واقفا يجيل بصره كالمعتوه كأنّه يبحث عن... قصيدة.

14

بقدر ما أضحكني طلب ذلك الشّــاعر المدعوّ إلى مهرجان شعريّ كبير، بقدر ما عدت إلى المنزل حانقا عليه وعلى صديقته التي لا أعرفها وعلى الذين وجّهوا إليهما الدّعوة وعلى الفايسبوك أيضا.

دخلت البيت هامّا بالنّوم.

كان يجب أن أنام لأنسى حواري مع ذلك الأبيض السّمين الأحمق السّاذج.

لم تكن أمّي بمفردها.

أمامها كانت تجلس امرأة هي أيضا بيضاء وسمينة. كدت أظنّها الشّاعرة الفايسبوكيّة سألت عن سكني وجاءت تنتظرني عند أمّي لأكتب لها قصيدة تلقيها أمام جمهور المهرجان الذي دعيَت إليه.

بدأت الضّيفة تبكي.

يا ربّي لماذا تبكي النّساء بسرعة وبسهولة ؟

هل لديهنّ أزرار يضغطن عليها وقت الحاجة فتسيل دموعهنّ مدرارا ؟

يبكين كثيرا ويضحكن كثيرا ويتكلّمن أكثر من الرّجال ويعشقن تفاصيل التّفاصيل ويحفظن الأخبار والحكايات حفظا دقيقا.

ابتعدت صورة الشّاعرة الفايسبوكيّة وحلّت محلّها صورة واحدة نُكبت في زواجها أو في إرثها أو في رزقها فجاءت تطلب أن أحرّر لها شكوى تستردّ من خلالها ما ضاع من حقّها.

شرعت أمّي تسكتها ثمّ التفتت إليّ:

– اسمع "مبروك"، لهذه المرأة فضل عليّ وعليك. لولاها ولولا إصرارها لما اهتمّ بي زوجها العزّام يوم قصدته وطلبت منه أن يخصّك بحرز يحصّنك مـــن كيد الحسّاد ويفتح لك أبواب الرّزق. ها دورنا جاء لنردّ لها الجميل. اكتب لها شكوى في ما ستطلبه منك.

وتركتنا أمّي لتدخل المطبخ وهي تشجّعها على أن تروي شكواها بنفسها وتوصيني أن أهتمّ بها كثيرا.

جذبت أوراقا بيضا وقلما وبدأت أستمع إلى "وردة" زوجة كاتب الحروز تروي خيانة زوجها وكيف ضبطته مرارا ونبّهته مرارا ولكنّه لم يرعو.

– هذه المرّة أقسم بأمّي "فطيمة" أنّي سأريه النّجوم في وضح الضّحى. اكتب لي شكاية ضدّه وضدّها.

– ضدّ من؟

– ضدّ كاتب الحروز الذي يدّعي أنّ أصابعه مباركة وأنّ فيها الرّزق والشّفاء وأنّه ورع لا مثيل لتقواه وضدّ تلك الفاسدة التي ضبطته معها. انظر.

ومدّت إليّ هاتفها الجوّال فظهر أمامي عمّي الشّيخ ينزّه يده بين كتابه الأصفر يبحث فيه عن الحِكم ولحم حريفته الأسمر السّمين يبحث فيه عن... حِكم أخرى.

كان ذلك كافيا.

لم يكن لائقا أن أستمرّ في المشاهدة.

ضغطت على زرّ وأوقفت الفيديو وأنا أقول لحريفتي :

– استري ما ستر الله.

– لن ينفع معه السّتر. سأقاضيهما معا. اطلب مقابل تحريرك ما تريد وكن معي ولا تكن عليّ وانس أنّه كتب لك ذات يوم حرزا فلولاي لما كتبه.

عادت أمّي بفنجانيْ قهوة وتناولت القلم ووضعته بين سبّابتي وابهامي وقالت لي:

– اكتب.

كتبت ما سمعت، لم أزد عليه شيئا ولعلّي أنقصت منه أشياء.

قرأت ما كتبت على صديقة أمّي التي خلتها شاعرة تبحث عن قصيدة فإذا هي زوجة العزّام جاءت تكشف عن فضيحة.

وهي تتّجه نحو الباب انحنت عليّ وقبّلتني.. عُمْتُ في العرق وأحنيت رأسي حتّى لا تلتقي عيناي بعيني أمّي.

قالت:

– سأعود إليك كلّما احتجتك.

فردّت عليها والدتي :

– عودي متى شئت.

كان يجب أن أنام لأنسى حكاية الشّاعر الذي لا يملك قصيدة يلقيها في مهرجان دعي إليه وحكـاية الفيديو الذي رأيت فيـه "سيدي الشّـــــــيخ " يمارس جنونه على مرمى ريشة من زوجته الجميلة.

استلقيت على سريري وبدأت أغفو.

كان هناك.

كان ينتظرني.

بمجرّد ما أخذني النّوم سمعت الباب يُدكّ دكّا ورأيته يدخل. عيناه حمراوان منتفختان من الغضب وأطرافه ترتعش وأوداجه كأنّها ستنطّ خارج وجهه.

– نكّار جميل. لولاي لما دخل حانوتك أحد ولما ذاع صيتك ولاضطررت إلى غلق بابك بعد يومين أو ثلاثة.

لو صددتها أنت لتراجعت عن شكواها ولو أقنعتها لولّت وجهها خائبة ولو افتككت منها هاتفها لضاع دليلها ضدّي.

لا خير فيك ولا في أمّك.

تفووووو على رجال هذا الزّمن.

شجّعه صمتي وجبني على الاقتراب منّي. التصق بي وأخذ ياقة قميصي بين يديه وبدأ يرجّني رجّا قبل أن يدفعني إلى الخلف ويرتطم رأسي بالجدار.

– اااه.

مذعورا ومنهكا ومرتعدا تلمّست رأسي وأخذت أبحث في أصابعي عن أثر دمي.

وجاءت أمّي مهرولة وهي تقول:

– لا بأس عليك يا "مبروك"، سمعتك تصيح، صيحتك ملأت البيت وخلخلت قلبي.

لم أرو لها ممّا فعله بي العزّام شيئا، فقط ابتسمت وطمأنتها ونهضت أستحمّ لأنسى رداءة هذا اليوم.

15

مدّ لي النّادل قهوتي فائرة ومدّ لي "رفيق" جريدة لم يكن قد فضّها بعد.

ارتشفت الجرعة الأولى فاحترق لساني وأسرعت أداوي ألم الكيّ ببرودة الماء ثمّ فضضت الجريدة وبدأت أمرّ على عناوينها فصدمني من بينها واحد.

"كـــاتـــب عمــوميّ يدخــــل السّـــجن".

طويت الأوراق واعتذرت وهرولت نحو مكتبي أختبئ فيه لأقرأني.

فتحتها مرتعشا.

سأقرأني.

سأجدني هنا واقفا أمام القاضي ومَقُودا كأسير نحو سيّارة السّجن السّوداء الكبيرة وداخلا مطأطئا كالحمار الحامل أثقالا إلى ذلك العالم الموبوء.

ستعيد عليّ الجريدة حكايتي من أوّلها ولن يمنع مانعٌ من كتب الحكاية من أن يزيد فيها ما يشاء وكيف يشاء.

حمدت الله على أنّ العنوان لا ترافقه صورة ولو وجدوها لألصقوها، وبدأت أقرأ.

عندما أنهيت القراءة انتعشت وحمدت الله كثيرا كثيرا وكما لم أحمده من قبل أبدا.

أحسست كأنّني لم أدخل السّجن ولم أقضّ فيه تلك الأربع وعشرين ساعة.

كان سيكون مرّا ذلك الحبس لو وُثّق هنا بين صفحات المحاكم وقرأه النّاس والنّاس عندنا يعشقون الغسيل المنشور ويحبّون تلك الصّفحات حبّا جمّا.

الزّميل الكاتب الذي قرأت عنه اسمه "خ. ص. و.". حرّر لواحد زعم أنّه جريح من جرحى الثّورة ما يفيد أنّه تلقّى رصاصة في ركبته أيّام الاحتجاجات وجاء معه بشاهديْ زور فنودي الجريح وخضع لفحص مدقّق ثمّ نودي الشّاهدان ونودي من سلّم الشّهادة المزوّرة ونودي الكاتب العموميّ الذي أدلى – ليقبض أكثر – بما يفيد أنّه شاهد الواقعة فعلا.

طوى الجريدة وجاءه وهو يعيدها إلى صاحبها صوت النّادل يستحثّه على الإلتحاق مجدّدا بمكتبه.

على العتبة كانت في انتظاره ثلاث نساء.

وضع النّادل فناجين القهوة وكؤوس الماء أمام الزّائرات ووقف أمامهنّ يبتلعهنّ بعينيه ابتلاعا ناسيا ومتناسيا صياح حرفائه ونداءات صاحب المقهى وإشارات "مبروك" له بالخروج.

ظلّ هكذا.

هكذا ظلّ إلى أن رمقته بنظراتهنّ الحريفات الثّلاث معا.

أنصت "مبروك" إليهنّ بانتباه شديد ثمّ بدأ يحرّر لفائدتهنّ مطلبا جماعيّا.

"السّادة والسّيّدات :

رئيس مجلس الشّعب،

وزير الداخليّة،

وزيرة الشّؤون الاجتماعيّة،

وزيرة المرأة والأسرة،

نحن المسمّيات ..... و.....و.....، كنّا نأكل من لحمنا الذي كنّا نعرضه بسخاء في بيوت ماخور العاصمة قبل أن يداهمه مجموعة من الملتحين ويحرقوه ويطردونا.

لا رغبة لدينا في العودة إلى ذلك المحلّ حتّى وإن فتح أبوابه من جديد ولا رغبة لدينا في العودة إلى مهنتنا القديمة التي اضطررنا إليها اضطرارا أيّام الصّغر ولم نجن منها شيئا، ولكنّنا نعتقد أنّه لنا عليكم حقّ العيش الكريم، فسارعوا لنا بمورد رزق قارّ نعيش منه ونبدأ به حياة جديدة.

ولكم منّا الشّكر المسبق.

إن لم يؤت طلبنا أكله، سندكّ عليكم أبواب مجلسكم ومكاتبكم وسنرابط أمامكم إلى أن تتدبّروا لنا أمر طعامنا وإيوائنا وإكرامنا.

انتبهت وأنا أكتب مطأطئا إلى أنّ كمّية الضّوء داخل المكتب كانت تتناقص وكان يصل أذنيّ ضجيج غير عاديّ ويبدو أنّ النّادل نقل لهفته إلى كلّ الحرفاء فأخذوا يمرّون سريعا أمام الباب يتلصّصون على من بداخله ثمّ اقتربوا بكراسيهم وطاولاتهم في انتظار اللّحظة الحاسمة، لحظة خروج الثّلاثي، ليتسنّى للأعين الجائعة أن تتملّى التّفاصيل وللأرجل المتوثّبة أن تلاحق السّيقان النّاعمة.

– يَرْحَمْ مَنْ قَـرَّى.

قالتها "بوكة" وفي صوتها وجع كوجع النّدم.

– شكرا لك سيّدة "بوكة"... وأنت ما قريتش ؟

كأنّها كانت تنتظر السّؤال.

كأنّ الرّغبة في أن تحكي سيرتها باغتـتها وقتها وألحّت عليها.

هل كانت تحكي لي أم كانت تحدّث نفسها أم كانت تعيد على رفيقتيْها سيرتها ؟

– السّادسة من التّعليم الابتدائي كانت نهاية المطاف أيّها الكاتب، كانت المرحومة أمّي تردّد على مسمعي:

– اقري باش تولّيلي طبيبة وإلّا معلّمة وإلّا محامية... اقري باش ترفعيلي راسي.

ولكنّي لم أنل مرتبة الطّبيبة ولا الممرّضة ولا أيّة مرتبة أخـرى ممّا حلمنا به. ظللت في المدرسة إلى السّادسة ابتدائي ثم سحبتني أمّي.

سحبتني لأنّي رسبت ولأنّي بتّ مغوية ومغرية وعليّ أن ألزم الدّار وألزمها ولأنّها باتت عاجزة عن ثمن محفظتي وأدواتي ولبـاسي.

ما كانت تتقاضاه – رحمها الله– من تأجير لحمها في القباء والدّيار المهجورة والصّحاري والمستودعات لم يكن يكفي لغير مصاريف الكراء والأكل.

كأنّها أحبّت أن تقول لي إنّه لا يحقّ لمن تعيش على لحمها أن تحلم برؤية ابنتها طبيبة أو ممرّضة أو معلّمة...

كأنّها أحبّت أن تقول لي إنّ من يعبث الرّجال وأشباههم بجسد أمّها لا ينبغي لها أن تتطاول في الحلم وتتجاوز المراحل الابتدائيّة في أحسن الأحوال.

الله يرحمك يا أمّي.

لم يكن ذنبها عظيما في ما حصل.

– اااااااااااااااااااه .

كنت بين لهفة الاستماع إلى حكايتها وبين خوفي عليها من الانهيار والتّأثّر ولكنّي لزمت الصّمت وقد لزمته معي صديقتاها تعاطفا أو استمتاعا أو حفاظا على تقليد لديهنّ في الإنصات إلى سير بعضهنّ البعض ولو كانت مكرّرة مرّات ومرّات.

واتّكأت "بوكة" إلى الوراء ممسكة رأسها بين يديها وسكتت عن الكلام قليلا ثمّ استأنفته بعد أن جذبت نفَسا عميقا :

- البدايات بلهاء أحيانا لا منطق لها ولا عقل فيها...

ليلتها سمعنا طرقا على الباب فقامت أمّي وعادت برجُلين معـا.

كنّا نسكن حوشا بغرفة واحدة ينتصب إلى جوارها شيء كبيت الرّاحة، ولحوشنا ذاك سياج لا يتجاوز ارتفاعه مترا وفيه شجرة كاليبتوس ضخمة عمرها من عمر الأجداد القدامى.

لماذا عادت برجلين ؟ هل هّدداها وأجبراها على أن يتقاسماها؟

هل أغرياها بما جعلها تقبل بالجمع بينهما ؟

أسود ليل ذلك الشّتاء وبارد وليس في الحوش غير غرفة واحدة.

أنا وأمّي ورجلان وغرفة والبرد.

خرجت ودخلا أو دخلا وخرجت وفهمت أنّ مفاوضات تجري. المهمّ أنّ واحدا من الإثنين التحق بـــي حيث الشّجرة العجوز. نجوم خافتة تكاد لا تضيئ إلّا نفسها وكلاب تتنافس في النّباح ومواء قطط أكلها الجوع والبرد وصرير ريح وأنا تحت الشّجرة. التحق بي الرّجل الثّاني فابتعدت في اتّجاه بيت الرّاحة وأنا أقنع لحمي المصطكّ أنّ ربع ساعة فقط يفصلنا عن العودة إلى الغرفة الدّافئة. لم يقتنع لحمي وشرع يسبّ ذينك القادمين إلينا في تلك اللّيلة ويسبّ معهما الفقر والشّتاء.

باب غرفة أمّي موصد.

تخيّلتها تستعجل زبونها الأوّل ليدخل الذي يليه وأعود إليها.

كأنّي سمعتها تقول له : أسرع كثيرا من فضلك : ابنتي وصاحبك في العراء وبرد جانفي كافر لا دين له .

رأيته يشعل سيجارة ورأيت جمرتها تتّقد كلّما مصّها وتخفت كلّما أبعدها عن شفتيه ثمّ رأيتها تتّجه نحوي وهي على درجة عالية من الالتهاب.

الجمرة تتقدّم.

تتقدّم الجمرة.

لم يعد لي متّسع من المكان.

أنساني الخوف البرد ولكنّي سرعان ما أقنعت نفسي أن لا داعي للخوف الذي ركبني. هذا رجل جاء لأمّي.

هذا زبون ينتظر دوره ليدخل بعد حين حيث صاحبه الآن.

كم مضى على دخول الزبّون رقم واحد ؟ عشر دقائق في تقديري.

لا.

صاحب السّيجارة استغرق دقيقة ليشعل سيجارته ودقيقة ثانية بين مصّها والسّير نحوي. مرّت إذن دقيقتان تزيدان قليلا ومازال أمام صاحبه ثلاث عشرة دققيقة على الأقلّ.

اقترب كثيرا. التقط أنفي رائحة تبغه ومعها رائحة أخرى... رائحة كرائحة الجوع..

لم يكلّمني.

لم يطمئنّي.

وضع يده العريضة على فمي وألصقني على الجدار وبدأ ينهشني.

أحسستني كوم صلصال يُعجن.

كنت محاصرة بين الجدار البارد والبدن المندفع الهائج وروائح فمه وأنفه المقرفة.

انتهزت فرصة تحرّر فمي قليلا لأهمّ بالصّياح فأعاد كتم صوتي بعنف وهو يقول:

– أقتلك إن تكلّمت.

وبدأ يقتلني.

قتلني من الخارج، أكل لحمه لحمي أكلا... ثمّ بغلّ، بحنق، بما يشبه الانتقام، بعنف، اخترقني.

– إيّاك أن تتكلّمي بشيء.

قالها وهو يشعل سيجارة أخرى ويبتعد.

لم أتكلّم ولم يكن ضروريّا الكلام لتدرك أمّي ما حصل وماذا أصبحتُ.

الله يرحمها.

أذكر أنّ دخلنا تحسّن قليلا بعد أن أصبحنا double salaire وأنّ مستوى عيشنا تغيّر...

- قالت ذلك وضحكت فجارتها في الضّحك صديقتاها-

وانتشرت رائحتي.

ولم يكن أمامي غير أن أمضي قدما في ما انخرطت فيه.

قُبض عليّ أوّل مرّة فسجنت ثم أعفيت من نصف المدّة وقُبض عليّ ثانية فسجنت وأتممت العقوبة وفُبض عليّ ثالثة وكانت الفترة الأحلك. صحيح أنّني تعوّدت سجن النّساء وتعوّدت اشتياق أمّي ولكنّ سجني الثّالث كان مختلفا لأنّها لم تزرني طوال الفترة كلّها.

ولم يكن ممكنا أن تزورني فقد زارها وأنا بين جدراني من أخذها إلى حيث اللّاعودة.

بكيت على قبرها يوما كاملا وتعمّدت وأنا أبكي أن تسيل دموعي على موضع رأسها حتّى تخترق التّراب إليها ثمّ تركت مرقدها ويمّمت وجهي شطر مصالح وزارة الدّاخلية أطلب انتدابي مومسا بماخور تونس العاصمة.

أثقلت عليك أيّها الكاتب وأخذت وقتك كلّه.

– لا، سيّدة "بوكة "، شدّتني كثيرا حكايتك.

قالت " ننّو":

– ليتك كنت صحفيّا أو كاتب روايات لتستفيد من حكايـــاتنا.

نحن أصلا حكاية.

كلّ واحدة منّا حكاية.

المحلّ الذي كان يؤوينا حكاية.

الحرفاء الذين كانـوا يشترونا قليلا ويتركوننا لغيرهم من العابرين، كلّ منهم حكاية.

– لا أحد لا يحبّ الحكايات. الحكايات مفيدة ومسلّية.

قلت ذلك صادقا وقلت ذلك لأشجّعها على أن تروي لي من سيرتها مقتطفا، النّهار طويل ولا وجود لحرفاء آخرين في الانتظار وهذه فرصة قد لا تعوّض.

وكأنّها سمعتني أحدّث نفسي، بادرتني :

– هل تحبّ أيّها الأستاذ أن تعرف حكاية الأستاذة التي تحوّلت من التّدريس إلى التّمومس ؟ هل تحبّ أن تعرف حكاية أستاذة لغة فرنسيّة انتقلت من المعهد والقسم والتّلاميذ إلى أحضان السّكارى والعابرين وصيّادي اللّحم الرّخيص ؟

قلت :

– أحبّ أن أعرف ذلك، لست أدري لماذا ولكنّي أحبّ أن أسمع حكايتك وأنت ترويها بنفسك.

اااااااااااااااااه، قالتها بعمق.

وانطلقت تروي حكايتها :

– أمس، غلبني البكاء وأنا في قلب السّوق.

هل كنت مخطئة عندما استوقفت تلك البنيّة وقبّلتها ولمست محفظتها ونظرت في عينيها وربتّ على كتفها ومهمهت أمامها بكلام لم أفهمه ولم تفهمه ثمّ مضيت؟ هل كنت مخطئة ؟

لماذا فعلت ما فعلت ؟

دافع قويّ جدّا رماني نحوها وحرّك شفتيّ في اتّجاه وجنتيها وأصابعي نحو محفظتها وكتفها وشعر رأسها.

ذكريات نهضت فجأة أيّها الكاتب، ذكريات لم تمحها سنوات محلّ "سيدي عبد الله" وما قبلها.

حنين إلى المحفظة كان مختبئا تحت رماد الوقت.

رأيت محفظة تلك البنيّة فتذكّرتُني وتذكّرت محفظتي التي عاشرتها ثلاث سنين قبل أن يأتيني قرار عزلي ويحيلني على البطالة وعلى عوالم أخرى.

درّست عاما وعاما وأمهلوني لأنال الإثبات في خطّة أستاذة تعليم ثانويّ عاما ثالثا ثمّ عزلوني.

كان القرار واضحا.

"يؤسفنا أن نعلمكم أنّه تمّ عزلكم عن ممارسة مهنة التّدريس لعدم كفاءتكم البيداغوجيّة."

ثلاث سنوات قضيتها في ذاك المعهد، قضيتها أحاول أن أكون أستاذة لغة فرنسيّة ثمّ قرّرت اللّجنة أنّني لن أكون.

توقّفت جرايتي في نفس الشّهر الذي عزلت فيه وبدأت رحلة البحث عن عمل، أيّ عمل، اتّصلت بوالدي فرفضني تحت إملاءات زوجته وقال لي:

– عوّلي على نفسك، كنت في نعمة ولم تشكري.

بين أبي وزوجته فارق عشرين عاما وكان يجب أن يتّخذ موقفه ذاك ارضاء لها ورضوخا لمشيئتها... هبطت عليها فرصة الانتقام منّي من علٍ وحطّت أمامها على طبق لأنّني كنت طوال السّنوات الثّلاثة رافضة أن أرسل له حوّالة واحدة مخافة أن يتسلّمها بيده ويضعها في يدها.

وخرجت أستاذة الفرنسيّة يا سيّدي تبحث عن أيّ عمل.

قرأت اعلانات الجرائد إلى أن ملّت القراءة ويئست منها وجابت الفضاءات التّجارية والمغازات على أمل أن تنتدب فيها بائعة ثمّ أشفقت عليها صاحبة مغازة أحذية وملابس وضمّتها إلى طاقمها.

يا لطاقمها !!!

ستّ بنات يتشابهن في كلّ شيء.

أنيقات رشيقات جميلات مقطوعات من شجرة غير مرتبطات، أرواحهنّ معلّقة بالعمل، تعبن كثيرا قبل أن تشفق عليهنّ واحدة تلو الأخرى صاحبة المغازة وتنتدبهنّ.

يا لطاقمها !!!

كان يمكنني بعد أن توجّست خيفة من الطّاقم وربّانه وداخلتني الشّكوك أن أعتذر، أن أنسحب، أن أتراجع... ولكنّه لم يكن أمامي خيار آخر.

سأتعب كثيرا قبل أن أعثر على فرصة أخرى وقد لا أعثر على أيّ فرصة.

توجّست خيفة... وتمسّكت بالبقاء.

داخلتني الشّكوك... ولم أصرّ على الابتعاد عن البنات وسيدتهنّ والمحلّ.

ساءني أنّ جرايتي هزيلة مقارنة مع ما كنت أتقاضاه ومقارنة مع ما أبذله من جهد ومقارنة مع ما أوفّره للمحلّ من زبائن ومداخيل ولكنّي قبلت الأمر بفرح وأسعدني كثيرا أنّ السّيدة المشغّلة توفّر لنا الإقامة والأكل في بيتها الكبير.

لم يدر بيني وبينها أيّ حديث خاصّ.

لم أتلقّ أيّ تعليمات خارجة عن نطاق البيع والشّراء واستقبال الحرفاء.

ولكنّ الأمر لم يكن يتطلّب حديثا ولا توضيحا.

شغّلتني وآوتني وتركتني أيّاما ولياليي أشاهد ما يجري في البيت بين البائعات وحرفاء اللّيل ثمّ جاءتني ذات ليلة بحريف محترم قالت له أمامي:

– أنت مبجّل لدينا، لذلك اخترنا لك الأجمل والأجدّ والأجدر بك وبخدماتك التي ما فتئت تُنعم علينا بها.

وابتدأت اللّعبة.

هكذا هي البدايات.

عمياء أحيانا خرقاء بلهاء لا منطق فيها ولا عقل لها.

بدأت اللّعبة أيّها الكاتب.

ليتك كنت كاتب روايات لتستفيد منّي ومن صاحبتيّ.

عمل بالنّهار قد يتوقّف في أيّ لحظة لمصاحبة زبون إلى حيث يريد أو إلى منزل السّيدة وسهر في اللّيل يتحوّل هو أيضا في أيّ لحظة إلى مضاجعة لحريف أو أكثر.

يحدث هذا عندنا يا سيّدي.

تقبض السّيدة الثّمن الذي ستنالني منه آخر الشّهر نسبة وأقبض أنا أحيانا ما يمكن أن يجود به الحريف خارج المبلغ المتّفق عليه.

كفرخ مضطرب أغراه الحَبّ حُمْتُ، حُمْتُ، حُمْتُ، وخفت واضطربت واقتربت ثمّ وقعت وأطبق عليّ الفخّ إطباقا لا فكاك منه.

كنت خائفة ولكنّ السّبل كانت مقطوعة أمامي وهذه السّيدة آوتني وشغّلتني ورتّبت لي جراية شهريّة أنستني بها خيبتي وعدم كفاءتي البيداغوجيّة وبطالتي وزوجة أبي وأبي المغلوب على أمره.

وأنا لست أفضل من السّتة الأخريات، هنّ أيضا جميلات بل فاتنات وصبايا.

نكاية في عدم الكفاءة البيداغوجيّة.

نكاية في أبي وزوجته وانتقاما منهما.

ليعبث بك يا "ننّو" العابثون وليؤجّرك مـن مشغّلتك اللّاهثون وراء اللّحم الرّخيص، تحمّلي واصبري واصطبري فلا خيار أمامك.

هذا قدرك، هل اخترت أن تُعزلي من وظيفتك ؟ أم اخترت أن تصادفي هذه المشغّلة التي وفّرت لك كلّ شيء؟ أم اخترت أن تفقدي أمّك ويتزوّج أبوك بعدها امرأة تتأبّط شرّا ؟

قبلت الأمر ونسيت خيبتك وبدأت تدوسين على الماضي وضجّ بدنك باللّحم وتورّد خدّاك وانتفخت انتفاخا جميلا وبدأت تحبّين أعمالك وحرفائك والهدايا والجراية واللّيل.

اااااااااه يا "ننّو".

عندما اطمأننت إلى دنياك الجديدة انقضّ على طمأنينتك وعلى طمأنينة زميلاتك ومشغّلتك ذات ليلة جيش من رجال الأمن، داهموكنّ وقادوكن وحوكمتنّ وأصبحت إحدى نزيلات سجن النّساء.

ضبطت أستاذة اللّغة الفرنسيّة وآدابها أيّها الكاتب تبيع ليلها ولحمها للسّاهرين والسّكارى ولمجانين النّساء واللّذّة.

هل اخترت مصيرا كهذا؟

هل دار بذهني يوما أن أقف مجرّد وقوف بمركز أمن ؟

أجبت عن أسئلة المحقّقين واعترفت وأمضيت على اعترافي وقادوني إلى السّجن.

هناك سمعتْ النّزيلات حكايتي فأشفقن عليّ كثيرا ونصحنني أن أنضمّ بمجرّد انتهاء العقوبة إلى طاقم آخر هو طاقم نساء ماخور العاصمة.

– هناك سيحميك القانون وستكونين محترمة، إقامتك مضمونة وأجرك في ازدياد ولن يجرؤ عليك أحد.

انضمّي إلى الماخور نكاية في عدم الكفاءة ونكاية في أبيك وزوجته ونكاية في الذين أبلغوا عنكنّ الشّرطة ونكاية في القاضي الذي لم برأف لحالك ولم يراع بطالتك وفقرك ورداءة أبـيك. انضمّي إلى هناك ضمانا لفتنتك وعمرك القادم واحتياطا للزّمن الأغبر... انضمّي إلى محلّ العاصمة وبيعي لحمك بالقانون.

لن أطيل عليك أيّها الكاتب، انتظرت انقضاء فترة سجني وذهبت أنضمّ إلى سجن آخر... بقيت هناك إلى أن داهمنا ذات ضحى ونحن بين النّوم واليقظة شبّان ملتحون يلبسون قمصانا وسخة يحملون العصوات والهراوات والدّبابيس المشتعلة وقوارير البنزين وشرعوا في سكب قواريرهم وفي إحراق المحلّ...

رأينا الموت بأعيننا ولكنّنا نجونا.

لم أخف في حياتي مثلما خفت ذلك اليوم.

لم أسمع أبدا في حياتي بكاء وعويلا وصياحا كالذي ملأ أزقّة الماخور وغرفه ذلك اليوم.

لم أر أبدا تدافعا كالذي رأيته تلك الصّبيحة، نساء عاريات ورجال بنصف ملابس يتدافعون كالشّهب نحو باب الخروج.

عزّ على أولئك الكفرة أن نحاسَب في الآخرة فاستعجلوا لنا النّار ولكنّ الله كان بنا رحيما.

عمر آخر هذا الذي نعيشه الآن أيّها الكاتب.

تمنّيت لو كان يمكنني أن أمدّ قلبي إلى "ننّو" لتمسكه وتتلمّسه وتتذوّقه وتحسّ درجة حرارته التي ارتفعت ونسق نبضه الذي فقد الانتظام ومذاقه الذي أصبح بمرارة ما روت لي.

تمنّيت لو كان يمكن أن تراه لتشاهد اسوداده وانكماشه تأثّرا بخيبتها وما عانته من عزل ومن امتهان ومن حبس.

قلت لها :

- لم يكن ضعيفا قلبي أبدا كما هو الآن إثر سماعك.

يــا أنت يا جبلا شامخا، يتم وعزل وبطالة واحتياج وامتهان وحبس وأشياء أخرى.

وفيما ابتسمت لي تعبيرا عن تقديرها لتأثّري بما روت وبما عانت وكابدت، التقطت عيناي الرّفيقة الثّالثة تجهش بالبكاء.

أيّ يوم أغبر هذا ؟

أيّ حياة عاشها هذا الثّلاثي وأيّ ضنك لاقاه ؟

-أحبّ أن أسمعك أنت أيضا. لا تقلقي، لا حرفاء لديّ في الانتظار فلا تحرميني حكايتك أرجوك.

لم يكن صعبا أن أفهم أنّ كلّا منهنّ تحبّ أن تحكي حكايتها كما لتسمعها وكما لتكتشفها صاحبتاها كأنّهما يكتشفانها لأوّل مرّة.

كنّ يحكين لأنفسهنّ.

وكنّ يحكين لبعضهنّ بعضا.

وكنّ يحكين لي.

احكي ياسيّدتي، نحتاج أحيانا أن نروي ذواتنا لننسى متاعبنا قليلا.

نحتاج أحيانا أن نستحضر تجاربنا وخيباتنا وما مرّ بنا لننسى قليلا.

نحتاج أحيانا أن نتحدّث عن مراراتنا لنتداوى.

نحتاج أحيانا أن نتكلّم لنضع عنّا أوزارنا.

استلّت "بهيّة" منديلا ورقيّا مرّرته على عينيها ووجهها ونظرت في عينيّ كأنّها لتقول:

–هل ستصبر على حكايتي؟

ألن تضيق ذرعا بحديثي ؟

ثمّ اتّكأت على طرف المكتب وقالت :

–أنا أيضا يا أيّها الكاتب لم أكن أتصوّر أنّي سأدخل يوما السّجن ويوم دخلته وتيقّنت أنّني أصبحت حبيسة فيه أدركت أنّ كلّ النّاس أحرار مع تأجيل التّنفيذ.

الله يهلكو،

– آمين، قالت صاحباهتا معا.

– آمين، قلت بعدهما.

–من ؟ زوجك؟

– نعم، الذي كان زوجي.

– بسببه دخلت السّجن؟

–نعم بجنونه وبعبثه، يخيّل لي أحيانا أنّي كنت سأرتاح لو كنت قتلته ثمّ أعود فأقول لي :

–هو لا يستحقّ أن أقضي بسببه عمري سجينة.

– هذا يعني أنّك لم تقتليه ؟

–ربّما كنت نويت قتله، عندما رأيتهما أسرعت إلى المطبخ وعدت بسكّين وطعنتها وطعنته. تصوّروا رجلا يجرؤ على استقدام امرأة وإدخالها إلى داره من الباب الخلفيّ ومضاجعتها وزوجته على مرمى ريشة منه. كنّا في بيت واحد وكان يفصل بيني وبينهما جدار، تصوّروا، الله يهلكو، كان يحبّ العبث ووصل به عبثه إلى أن حوّل البيت إلى ماخور. الغريب أنّ ذلك حدث ونحن بعد في أيّام العرس الأولى والغريب أنّ التي ضبطته معها امرأة سوداء كغراب نحيفة كعود حطب والأغرب أنّهما غادرا السّجن قبلي. هل كنت مخطئة ؟ هل كان عليّ أن أتظاهر أنّني لم أنتبه لما يجري في بيتي؟

هل كان عليّ أن أتركه يحوّل البيت إلى سوق للمومسات ؟

هل كان عليّ أن أتركه ينام معها في جواري وينام معي بعدها بعرقها وروائحها وبقايا قُبَلها ؟ كنت سأقول أمام المحكمة إنّني كنت أنوي قتلهما لكنّي تراجعت وقلت– حتّى أحظى بأقصى ظروف التّخفيف– إنّ نيّة القتل لم تدر بخلدي البتّة.

آلمني كثيرا أيّها الكاتب أنّي تزوّجته رغم معارضة أهلي، لم يرض عنه منهم أحد ولكنّي لم أخش غضبهم وقلت سينالنا رضاهم ولو بعد حين. وقلت هذه حياتي والفرصة لا تأتي دائما وعروض الزّواج لا تطرق بابي كلّ يوم.

صحت في وجوههم :

- رفضت من تقدّم لي منذ عام إرضاء لكم،

ورفضت من جاء بعده إرضاء لنا،

ولن أرفض هذا الثّالث رغم "عيوبه" التي لا يراها سواكم،

لماذا أرفضه وقد لا يأتي واحد غيره ؟

أرسل إليّ أبي أمّي تقول لي :

– لن ينالك رضاي إن رضيت به.

أبلغتني أمّي كلام أبي ولزمت هي الحياد.

ومرّت مراسم العرس شبيهة جدّا بمراسم جنازة.

اختصرت مدّة الفرح حتّى أنتقل سريعا وبأخفّ الأضرار من دار العائلة إلى دار عريسي.

كم كنت مجرمة في حقّ أمّي وفي حقّ أبي وفي حقّي.

ضحّيت برضاء أبي وبفرح أمّي وبمراسم عرسي وبصلتي بأهلي وجئته منقادة أجرجر فستاني الأبيض وأحلاما عريضة وثقة لا حدود لها.

ما أغبانا عندما نكنّ لشخص لم نخبره بعد مليّا ثقة بلا حدّ.

ما أغبانا عندما ننسى أنّ المظاهر خدّاعة غالبا.

ما أغبانا وكم نكون حمقى عندما نعتقد أنّ كلّ المحيطين بنا على خطإ وأنّنا وحدنا نقف على خطّ الصّواب.

المهمّ سيّدي الكاتب وحتّى لا أطيل عليكم، اتّصلت قبل مغادرتي السّجن بالمديرة وطلبت منها أن تُـتـمّ لي اجراءات الإلتحلق بماخور محترم... عائلتي لن تقبلني وأنا لن أعود إليها ولن يقدم أيّ رجل على الزّواج من امرأة همّت يوما بقتل زوجها حتّى لو كانت فعلت ذلك لأنّها ضبطته مع أخرى على مرمى نفَس منها ولن أرضى لنفسي أن أجوب الأنهج أتسوّل أو أن أعرض لحمي للعابرين ولن أنتقم من طليقي عبر التّمومس في الدّيار والسّيارات والشّقق، لا، سأنتقم منه بالقانون، بالتّمومس في بيت دعارة حكوميّ.

نكاية فيه سأصبح مومسا قانونيّة لديّ رقمي الخاصّ ومقرّ عمل معروف وغرفة وحارس ومناب من المرابيح وجراية تقاعد بعد عمر مديد وتغطية صحيّة وحياة منتظمة وسأسعى إلى أن يصله أمري بالصّوت والصّورة.

هذه العروس التي كانت على ملكك وحدك لا شريك لك فيها وعلى ذمّة عبثك ليلا ونهارا هي الآن ملك مشــاع، ملك لمن يدفع، لذّة لمن يشتري، هذه الفتاة التي هجرت أهلها من أجلك، الآن تهجرك لأجل آخر رجل في الرّجال، من أجل أيّ رجل يمتلك معلوم الماخور، لأجل السّكارى والمراهقين وكلّ أصناف المشترين أو المؤجّرين.

لست نادمة أيّها الكاتب على أنّ تلك الحادثة غيّرت مجرى حياتي فدخلت السّجن وتحوّلت منه إلى ماخور وكدت أحترق يوم الواقعة وها أنا أحمد الله ولا أطلب إلّا أن تؤويني الدّولة وتحميني وتطعمني.

أليس ذلك من حقّي ؟

16

يا لغرابة هذا المكتب !

المقعد الذي كانت تجلس فيه بالأمس ثلاث نساء قادمات من ماخور العاصمة يشغله اليوم واحد من المحسوبين على المتشدّدين دينيّا.

طرق الباب وظلّ صامتا.

ظلّ ينظر إليّ ويبتسم.

فهمت أنّه يذكّرني بنفسه وأنّه مصرّ على أن أتعرّف إليه بذاكرتي البصريّة دون الاستعانة بالصّوت.

لم تقل لي ذاكرتي شيئا معيّنا، حامت وهامت وعادت إليّ خائبة.

ولكنّها نطقت باسم الرّجل بمجرّد ما سمعته يقول "السّــلام عليكم" ويشرع في الضّحك.

– "منتصر الفأر ".

ما عاد "منتصر" فأرا. ها جسده ضاجّ باللّحم وها عظام وجهه التي كانت ناتئة تختفي تحت أوداج منتفخة وها لحية خفيفة مرتّبة تحيط بوجهه الذي أصبح أحمر كرمّانة ناضجة منتفخا كبالونة.

احتضنته واحتضنني وتركت مكتبي لنجلس متقابليْن وكنت أكبح رتل الأسئلة المتزاحمة في حنجرتي تتنافس لتلقي نفسها على صاحبي الذي لم أره منذ سنين.

لم أستغرب كثيرا زيارة "منتصر الفأر" إلى مكتبي رغم أنّ علاقتي به سنوات الجامعة كانت عاديّة جدّا ورغم أنّنا كنّا على طرفيْ نقيض ولكنّي استغربت مثلا بدلته الأنيقة وربطة عنقه الفاخرة وإذ لاحظ صاحبي استغرابي ضحك حتّى كاد شعر لحيته يختفي وراء وجهه وقال :

– أليس من حقّنا أن نلبس البدلات وربطات العنق ؟

أجبته :

– لم أكن لأكون سعيدا طبعا لو رأيتك اليوم في واحد من قمصانك البيض الطّويلة.

ضحكنا.

وقمت أحضر ضيافة صاحبي لأعود معه إلى ذكريات كثيرة وليستمع كلّ منّا إلى ما عاناه الآخر بعد سنيّ الجامعة.

قال "الفأر" أو "الفأر" سابقا إنّه عاد إلى الجامعة وحصل منها على الأستاذيّة ولكنّه لم يحصل على وظيفة ولا نجح في مناظرة من المناظرات الكثيرة التي اجتازها ثم جاءت ثورة ديسمبر جانفي فأنقذته وأعادت إليه اعتباره وعيّنته أستاذا في معهد وسط مدينته وها هو الآن يستعدّ للانتقال إلى مجلس الشّعب نائبا عن حزبه وعن جهته.

حدّثني "الفأر" عن تسيّب التّلاميذ وتدنّي مستوياتهم وجهلهم وإصرارهم عليه وعمّا يعانيه منهم ومن الإدارة ومن الآباء والأمّهات وقال إنّه سيهتمّ بكلّ ذلك إن هو فاز بثقة مدينته وصعد إلى مقاعد مجلس الشّعب وزاد فوعدني أنّه سينظر في أمري وإنّ وظيفة لائقة ستكون في انتظاري بمجرّد نجاحه ونجاح حزبه بالأغلبيّة في الانتخابات ولم ينس أن يقرن وعده لي بدعوتي إلى تشجيع

قائمته والتّصويت لفائدتها والدّعاية لها حتّى وإن كنت غير مقتنع بها فهي حسب رأيه في أسوا الحالات أفضل الموجود.

وعدت صاحبي أنّ كلّ الأصوات التي طلبها والتي لم يطلبها – صوتي وأصوات عائلتي وحرفائي وأصدقائي وجيراني وأقاربي وروّاد المقهى – ستذهب لفائدة حزبه وقائمته ولكنّي لم أخاطب بشأنه أحدا واخترت يوم الانتخابات أن أصطفّ مع الملايين الثّلاثة الذين خيّروا الحياد.

لم أكن أنتظر ولادات سليمة ولست مستعدّا للمساهمة في ولادة مشوّهة.

صاحبي "الفأر" قال لي إنّه أضاف نقطة إلى الفـــاء فأصبح "منتصر القارّ" ويوم هاتفني بعد صعوده إلى مجلس الشّعب ليشكرني على كلّ الأصوات التي جمّعتها له وكلّ المجهود الذي بذلته من أجله –ولم يكن هازئا إذ ذهب في ظنّه حقّا أنّي أمّنت له دعاية ضخمة –أكّد لي أنّه لن يقبل بلقبه القديم ولو على سبيل الدّعابة وأنّ "القارّ" أكثر قيمة وأكثر مدعاة إلى الاحترام وشتّان بين "الفار" أكان ذلك الحيوان الصّغير الذي يعاشرنا في مطابخنا وبيوت مؤونتنا ومستودعاتنا أم كان نعتا لشخص هارب والقارّ الذي تذهب دلالاته إلى الثّبوت والدّوام.

17

متأنّقة جاءت.

ملأ عطرها المحلّ وخياشيمي وتسلّل إلى تجاويف في روحي فأسكرها وإلى تفاصيل فيّ فأيقظها.

مبتسمة حيّتني ولم أستوعب من تحيّتها غير صوتها البلبليّ وشدّت على يدي وأمعنت في الشّدّ حتّى خلت يدي أصبحت يدها وقرّبت صدرها منّي حتّى أحسست أنّه يلامس قلبي.

كم هو جميل أن تشعرك المرأة بطغيان أنوثتها !

كم هو رهيب أن يكون الرّجل في حضرة أنثى حقيقيّة !

سيكون سهلا لقاضي جلسة المحاكمة اليوم أن يقتنع بأنّ هذه الفاتنة لا تحلّ لذلك العربيد الأبله. سيقارن حتما بين أناقتها ورذالته وبين حسنها ودمامته وبين شبابها وكهولته وبين صوابها وهذيانه.

تماوج شعرها حتّى تمنّيت أن يغطّينا وتحرّكت شفتاها انفراجا ومصّا حتّى خلتهما سيلتهماني... وبدأت أشعر أنّي أذوب.

سيكون لكلّ هذا الحضور أثر في السيّد الرّئيس وتأثير عليه. سيحجب سحر حريفتي على القاضي التّفكير في أمر الرّوابط الأسرية وضروة صبر الزّوجات على تعاسة أزواجهنّ وسينسى أنّ الصّلح خير وربّما قال بينه وبين نفسه: "حرام أن يُظلّ بيت واحد هذه الفاتنة مع هذا الصّعلوك" وستتمّ بأسرع وقت ممكن إجراءات الإنفصال بينها وبين ابن عمّها الذي قال عنه طبيب المستشفى ذات نوبة ألمّت به إنّ نسبة دمه في الكحول ضعيفة.

سحبت يدي بعد أن أحسست بها تعرق وتذوب في كفّ حريفتي وشعرت بحرارتها ترتفع... قلبي أيضا أحسسته لحظاتها حارّا كمدفأة وبدني أحسسته خفيفا كريشة وصوتي كان واضحا أنّه استحال حشرجة.

–تفضّلي بالجلوس ريثما آمر لك بقهوتك.

– أرجوك "مبروك "، لم يعد لدينا متّسع من الوقت.

–لدينا ؟

لم أفهم طبعا ما عنته فاستفهمت بإشارة من يدي:

– ؟

–لدينا: أنا وأنت.

وضحكت، فأحسست أنّ قلبي يستحمّ وسط بركة من العرق البارد ومرّرت كفّي أمسحه.

–إلى أين ؟ سألت محشرجا.

–اليوم موعدي مع المحكمة ولا أحبّ أن أكون وحيدة وسط كلّ ذلك العالم.

ومدّت يدها إليّ.

ملتفتا إلى سورة الشّرح، مددت يدي إلى الباب أجذبه وأغلقه وسرّعت خطاي لأتجاوز سريعا روّاد المقهى وتعليقاتهم وأجتنب الآهات التي ستنبعث وأصوات الحسد التي ستلاحقني وعبارات الغزل التي ستنطلق من كلّ الأفواه.

بدا لي أنّ كلّ الكراسي استدارت نحونا وأنّ الأعناق اشرأبّت تتبعنا أو تتبعها وخيّل إليّ أنّ العيون تحوّلت إلى أفواه كبيرة جائعة بحجم مغارات واسعة حتّى إنّي التفتّ إلى حريفتي أقيسها وأزنها وأتملّى لحمها أنظر إن كانت العيون قد هبرت منه.

كانت قاعة الجلسة قد امتلأت بعدُ حتّى فاض الخلق عنها وتزاحموا على بابيْها الواسعين ولم نكد نقف حتّى بدأت المناداة.

ولم يخب ظنّي كثيرا إذ كان واضحا أنّ السّيد الرّئيس أقام مقارنة بين حريفتي والرّجل الذي ستطلّقه.

نظر إليه وإليها، إلى شعرها الأسود المهياف النّازل على كتفيها، إلى وجهها القمريّ الفاتن، إلى جسمها الضّاجّ بالصّحة والحياة، إلى أناقتها الظّاهرة وما تخفيه من أناقة باطنة، ونظر إلى رأسه المكسوّ بنتف من الشّعر الشّبيه بمسامير صدئة معوّجة وإلى وجهه اليابس النّاشف كأنّه وجه جثّة شبعت موتا، إلى بنيته الشّبيهة جدّا بفزّاعة الحقول، إلى رثاثته الظّاهرة وما تكشف عنه من بذاءة في الذّوق... سألها عن سبب رغبتها في الانفصال فروت له نكد الرّجل الواقف إلى جانبها وغلظته وما فعله فيها وكيف تعيش معه وسأله إن كان كلامها صحيحا فطأطأ وغمغم ومهمه وتمتم أن نعم وكان سيبدأ في الاعتذار وفي إطلاق الوعود لولا أنّ القاضي أسكته ويبدو أنّه اتّخذ قراره وأنّه سيعلنه في الجلسة القــادمة.

أعاد إليّ ذهابي إلى المحكمة ورؤية الرّئيس يوم سجني فلعنت حانقا نتيجة المناظرة التي قادتني إلى الحانة وامتدّت لعناتي إلى ذلك الرّجل الذي اصطادني

هناك واستبلهني فحرّرت له ورقة كتبتها وأنا بلا عقل. لعنت مهنة الكتابة العموميّة التي زجّت بي منذ باشرتها في متاهات كنت في غنى عنها... ولكنّ العطر الذي يسير إلى جنبي يتنفّسني وأتنفّسه نبّهني إلـــــــى أنّ لهذا المكتب الذي فتحته أفضال عليّ جمّة. أليس فضلا أن يسوق إليّ هذا العمل امرأة كامرأة البروموسبور ؟

ووجدتني لأوّل مرّة مذ عرفتها أسأل نفسي لم هي مهتمّة بي ولم أصرّت على أن أرافقها إلى المحكمة ولماذا تلحّ على أن أتّصل بها كلّما عنّ لي الاتّصال ووجدت السّؤال مهمّا وتعبت في البحث عن اجابات تقنعني ولعلّني تعبت في أن أرسو على موقف من كلّ إجابة توصّلت إليها.

ماذا لو كانت تعلّقت بي ؟ ماذا لو كانت تراني مشروعها القادم والبديل عن ابن عمّها الذي ستطلّقه ؟ هل سأكون شريكها في كلّ شيء بما في ذلك الثّروة التي هبطت عليها بورقة اشترتها بدينار واحد ؟ وازدادت الأسئلة انهيالا عليّ... هل سأقبل أن أكـــــون الزّوج الثّاني أو زوج مطلّقة ؟

هل سترضى أمّي أن تسلّمني بكرا إلى امرأة وطأها قبلي واحد آخر ؟ هل سأرضى أن تنفق عليّ امرأة حتّى لو كانت زوجة لي من أموالها الخاصّة ؟

كيف سأنظر في عيني الرّجل الذي كان زوجا لها والذي كان سيظلّ رجلها لو لم تفرّق بينهما ورقة البروموسبور الرّابحة ؟

ولم تكفّ الأسئلة عن الإلحاح عليّ...

ألا يمكن أن يكون اهتمامها مؤقّتا قد ينتهي بانتهاء اجراءات طلاقها ؟ ألا يمكن أن أكون عابرا في حياتـــــها، سيعوّضني واحد قارّ أكثر مالا وبوظيفة محترمة وبسيّارة فاخرة...؟ أليس سلوكها من قبيل الانتهازيّة حتّى إذا ما نالت بغيتها تركتني فأُنسى كأنّني لم أكن... ؟

تباطأنا إلى أن انسحب وابتعد ذلك الرّجل الذي سيصبح طليق حريفتي في غضون شهر ثمّ ترافقنا في اتّجاه المكتب.

كان الفرح يرقص في عينيْ حبيبتي وبحشرج في صوتها.

كأنّها أعادت إلى ملكيّتها عمرها الذي كان على أهبة الضّياع وروحها التي كانت ستنطفئ وقلبها الذي نال منه التكلّس نصيبا وافرا.

أنا أيضا كنت على فرح.

كنت مبتهجا لابتهاجها ولأنّه أصبح ممكنا أن أفكّر فيها بصفاء ودون أن ينغّص عليّ هاجس ارتباطها بواحد آخر.

سألتها :

– إلى أين نذهب ؟

لم أسمع على سؤالي إجابة ولكنّي سمعت صوتي يتردّد :

– اااااااااااااااااااااااااه ...

وسمعتها تصيح في خلق الله تطلب لي النّجدة والفكاك من ابن عمّها ورفاقه الذين هاجمونا وأخذوا في تعنيفي على مرأى منها.

– باش تفكّلي مرتي وعيني حيّة يا ساقط ؟ زعمة زعمة كاتب ومثقّف وقاري في الجامعة ؟ نسيت اللّي هي بنت عمّي وأنت برّاني ؟ نسيت اللّي هي على ذمّة راجل ؟

صفعوني بغلّ وركلوني ورفعوني عاليا وخبطوني على الأرض ولم يكن متاحا لي أن أقاوم فقد كانوا كثرا ولم تكن لي خبرة بالعراك والعنف.

ثمّ سكت صوتي ولست أدري إن كان سكت حياء من صاحبتي أم عجزا عن النّطق أم اقتناعا بأنّ الّصياح لن يجديني نفعا.

تراكض بعض المارّة إلى أرض المعركة فترجّوا الجماعة أن يتركوني وذكّروهم بأنّهم أكثر منّي عددا وقالوا لهم يكفي هذا المسكين ما نال منكم.

لملمت أجزائي ومسحت بعض دمي وتفقّدت أسناني وتلمّست عينيّ وبدأت أحاول الوقوف.

مدّت إليّ صاحبتي التي لم يتجرّأ عليها أحد من العصابة ولو بالكلام ذراعها وأسندتني وتوقّفت سيّارة تاكسي فحملتنا إلى المكتب.

رآني أصدقائي أدخل مسنودا على ذراعها وأتحرّك ببطء شديد فأسرعوا إليّ وسألوا صاحبتي عن سبب ما أنا فيه فاكتفت بأن قالت :

- صدمته سيّارة ولاذت بالفرار والحمد لله على نجاته.

قالت ذلك وأخرجت مناديل وورقيّة وبدأت تمسح عنّي الدّم واللّعاب والتّراب.

أصرّ أصدقائي على حملي إلى المستشفى ولم تنفع معارضتي ولم تر صاحبتي من اقتراحهم بدّا.

عندما مُدّدت فوق سرير قسم الاستعجالي في انتظار الطّبيب ولم يكن في الغرفة غيري وغيرها، فوجئت بها تهوي عليّ وتقبّلني.

- ما أكرمك يا الله.

نسيت جراحي.

وتبخّرت آلام الرّكل والصّفع.

ولو كانت عصابة ابن عمّها أمامي لصحت فيهم :

– تعالوا اضربوني،

ارفعوني فوق رؤوسكم واطرحوني،

وأسيلوا كلّ دمي ولا تأخذنّكم بي الشّفقة.

نظرت إليها ممتنّا.

فنظرت إليّ خجلة تكاد عيناها تختفيان حياء.

وجاء الطّبيب.

وبدأت إجراءات الجسّ والمسّ والأسئلة وصور الأشعّة.

تعاونت ممرّضتان على تنظيف جراحي وتضميدي وجاء رجلان من شرطة المرور فألقيا عليّ أسئلة وحرّرا محضرا ضدّ سيّارة مجهولة ثمّ تناولت وصفة دواء وعاد بي أصحابي وصاحبتي إلى أمّي.

أعادت إليّ حالتي وأنا أدخل متوكّئا على الأذرع ذكرى عمرها الآن أكثر من ربع قرن.

كنت في الصّفّ الابتدائي وصادف أن عنّف أطفال يكبروننا سنّا واحدا من فصلنا تعنيفا شديدا لأنّه رفض أن يعيرهم درّاجته يلهون بها وجاء أبوه هائجا فلم

يسلم منّا منه أحد... الذين في فصل ابنه والذين في فصول أعلى والذين اعتادوا أن يرافقوه في طريق المدرسة.

ولا أدري لماذا نلت حظّا وافرا من الضّرب والصّفع.

عدت إلى أمّي متهالكا ولمّا استمعت إلى الحكاية تركتني وهرولت نحو والد الطّفل.

روت لي بمجرّد عودتها كيف صفعته أكثر من عشرين مرّة وكيف أنزلت سرواله من الخلف وعضّته وأصرّت على أن تترك أسنانها محفورة في لحمه وكيف أشبعته شتما وبصاقا وكيف أمسكت برقبته وأطبقت عليها حتّى كاد يختنق... وظلّت أمّي تروي لي ما فعلته مرارا مفتخرة بأنّها انتقمت لي وأنّه لن يقربني أحد ولو كنت ظالما متعدّيا.

قالت أمّي :

– لن أهدأ قبل أن أعيد إليك اعتبارك. دلّني عليه.

قلت :

– من ؟

– الأعمى الذي كاد يقتلك.

أقسمت لها بالأيمان الغليظة وبسرّ البخور والجاوي وبأولياء الله الصّالحين أنّي لم أره ولا أعرفه وطمأنتها بأنّني على ما يرام وأنّني أحمد الله لأنّني نجوت من موت كان سيكون أكيدا لولا صاحبتي التي أنقذتني واهتمّت بي.

ظلّت أمّي تغلي.

ظلّت تتآكل من الدّاخل.

تلعن وتسبّ.

وتدعو على صاحب السّيارة.

وتعود لتقول إنّها عين أصابتني.

وإنّ عليها أن تبحث عن عزّام مشهود له بالحكمة وبالقدرة على درء العين ليحرّر لي كتيّبا يحميني ويردّ عنّي كيد الحسّاد.

اقتضى الأمر أن ألازم البيت والسّرير أيّاما أنتظر أن تبرأ خلالها جراحي وينكمش انتفاخ وجهي وتزول آلام لحمي وعظامي وأصبح قادرا على المشي دون مساعدة أحد. وظلّت صاحبتي وأصدقائي يزورونني كلّ يوم فيسبّون أمام أمّي صاحب السّيارة ويهنّؤونها لأنّ العين التي أصابتي أخذت الشّرّ وابتعدت.

صبيحة زيارتها الاخيرة، مدّت لي صاحبتي وهي تغادرني مجموعة جرائد جديدة قالت إنّها ستسلّيني.

بسطت بمجرّد ما صرت وحيدا واحدة وبدأت اقرأ عناوينها : في صفحات السّياسة أحزاب تتراشق بالتّهم وتتنافس في تشويه بعضها بعضا ولا حديث عن الوطن وعن الجماهير التي انتخبت تلك الأحزاب وما تعانيه... في المجتمع جرائم نهب وقتل وخيانات واجتياز حدود وحوادث مرور... في الفنّ أخبار عن آخر الحفلات التي أحياها فنّانون وفنّانات وعن آخر زيجات وطلاق النّجوم والنّجمات وفي الثّقافة موت شاعر ومرض مسرحيّ وحوار مع كاتب عن أزمة القراءة وإعلان عن مسابقة عربيّة في الرّواية تخصّ الانتاج الرّوائي البكر رصدت لها جائزة ماليّة مغوية ومغرية.

طويت الجريدة وشغّلت التّلفزة وليس في ذهني غير خبر المسابقة ومبلغ الجائزة.

18

وأنا أقترب من المقهى بعد غياب دام أكثر من عشرة أيّام قضيتها أتداوى وأضمّد جراحي وأمسّد لحمي وأستعيد وجهي، بدا لي أكثر اكتظاظا وحيويّة... اقتربت حتّى وقفت على العتبة ثم تقدّمت حتّى وقفت في وسط باحته الواسعة، الطّاولات مشغولة ولا وجود لأيّ كرسيّ شاغر وورد على المضرب وموسيقى هادئة تنساب خافتة ورائحة عطر لم أتعوّدها تنتشر في المكان.

رآني صاحبي صاحب المقهى ونادله وجمع من أصدقائي فقاموا إليّ وسلّموا عليّ وأمطروني أسئلة وهنّؤوني بالعودة إليهم سالما.

قلت لصاحبي لمّا انفضّوا من حولنا :

– كأنّ المقهى أملأ من ذي قبل ؟

ضحك وأشار إلى فتاة كانت تلبس سروال دجين ضيّق جدّا وقميصا لا أدري لفرط ضيقه كيف لبسته وكيف ستنزعه.

جاءت،

تمشي كحمامة جاءت،

ابتسمت وحيّت ومدّت له يدها،

فمددت يدي إليها،

لم يكن صعبا أن أدرك على الأقلّ مالذي جاء بهذه الفاتنة إلى هذا المقهى فقد كانت الصّينية التي في يدها والكؤوس التي فوقها والمحفظة المربوطة بخصرها أمارات لا تقبل التّشكيك ولكنّي رغم ذلك كنت في حاجة إلى أن أتأكّد وأطمئن قلبي.

قال صديقي:

– هذا مبروك، الكاتب العموميّ الجديد، وأشار إلى مكتبي.

– وهذه رانية، نادلة مقهانا الجديدة.

– لي الشّرف أستاذ، سمعت عنك الكثير.

– شكرا شكرا.

لا أدري ما سمعت عنّي ولا لماذا شكرتها ولكنّي انتبهت إلى ظلال من الحزن تغطّي عينيها لم تفلح في إخفائها الابتسامة العريضة ولا الماكياج الخفيف.

ستصبح رانية صديقة مميّزة بعد أن أعرف منها أنّها حاصلة على الإجازة في اللّغة العربية وآدابها وأنّها بصدد إعداد رسالة ماجستير موضوعها استراتيجية السّخرية في بخلاء الجاحظ.

ستصبح رانيا صديقة مفضّلة بعد أن تتعوّد على أن تسرق من وقت عملها كلّما جاءتني بقهوتي دقائق تروي لي فيها حكاية عائلتها التي تقطن ريفا من أرياف مدينة القصرين والتي تعيش على رعي الأغنام وتحدّثني عن ظروف سكنها وكيف اكترت غرفتين مع زميلتين لها وكيف توزعّ وقتها بينه وبين المقهى والكلّية والبحث.

ستروي لي رانية فرحة العائلة بها يوم تخرّجت من الجامعة وانقلاب تلك الفرحة إلى ما يشبه الخيبة بعد أن تأكّد للجميع أن لا قيمة لتلك الشّهادة ولا فائدة ترجى منها.

وستروي لي وقوف أبيها ضدّ مرحلة الماجستير مصرّا على أن تمكث بالبيت أو تساعد في الرّعي وكيف أنّها انتصرت عليه لمّا وعدته باعفائه من مصاريفها.

ستفصّل لي رانيا أبواب صرف جراية المقهى وكيف توزّعها بين معلوم الكراء بتوابعه وزوابعه والأكل والتنقّل ومصاريف نسخ المراجع...

أحسست بالحسد الذي يكنّه لي جماعة المقهى الذين طوّح بهم الخيال بعيدا ولكنّي أشفقت عليهم من جهلهم ولم أول ذلك الحسد اهتماما.

وأصبحت رانيا تشكو لي الذين يتحرّشون بها ويبالغون في التقرّب منها والذين تجرّؤوا وصارحوها بأنّه ما من فتاة تجرؤ على الاشتغال في مقهى أو ما شابهه إلّا ولها بالعهر الصّريح صلة.

ولم يفد رانيا انكبابها كلّما خفّ نسق الطّلبات على كتبها وكراريسها ولم يفدها استبدالها قميصها القصير بواحد يغطّي كلّ عجيزتها وينزل الى الرّكبتين ولم يفدها ما قلته لروّاد المقهى بشأنها متوسّلا بفقرها وإصرارها على الفوز

بشهادة علميّة أخرى تدعم رصيدها وتقرّبها من أمل الوظيفة... كانت رانيا بالنّسبة إليهم جسدا متّقدا وفتنة كبرى.

ستظلّ رانيا تعاني التحّرش كلاما وغمزا وحركات ولمسا وعروضا وإغراء ولن يحدّ من ذلك تدخّل عرفها لردع بعض المتهوّرين.

ستظلّ المعركة قائمة إلى أن تنتهي تلك الطّالبة من إنجاز بحثها وتودعه بقسم الماجستير بالكلّية وتناقشه وتحصل على درجة مشرّفة...

وستظلّ رانيا بعد حصولها على الماجستير مجرّد ذكرى مرّت ذات ربيع بالمقهى فأحيته وزادت إلى حرفائه حرفاء آخرين كانوا جميعا يشتركون في تفحّص لحمها المكتنز تحت دجينها والمطلّ عبر فتحة قميصها وفي التودّد وفي دفع ثمن قهوتين مقابل قهوة واحدة.

سيخاطبها صديقي بعد عودتها إلى القصرين مهنّئا وعارضا عليها العودة مقابل جراية مضاعفة وستخبره أنّها ترغب فعلا في العودة والتّسجيل لمرحلة الدّكتوراه غير أنّ العائلة تصرّ إصرارا هذه المرّة على ألّا فائدة من كلّ ذلك وأنّ آخر رجل من المتقدّمين إليها خُطّابا والواقفين على بابها أفضل مائة مرّة من الّدكتوراه.

النسخة الإلكترونية: صالح مروكي 2021
كاتب
كاتب و مؤلف

كان أوّل ما قمت به بعد وصولي مكتبي أن جمّعت كلّ نسخ الشّكايات والعرائض والحكايات التي حرّرتها. تلك القصص ستكون روايتي، ستكون كتابي الذي سيروي سيرتي مع حرفائي المختلفين وكيف بدأت هاويا أحرّر لهم حكاياتهم مجّانا ومقابل دعوات الخير وانتهيت محترفا لديّ ترخيص قانوني ولديّ مكتب أدفع ايجاره وأكتب فيه بمقابل.

حكايتي سأبدأها من البداية وحرفائي الذين التقيتهم والذين سألتقيهم سيكونون أبطالها... سأواصل الكتابة للعموم ولكنّي سأكتب أيضا لنفسي تسندني هذه المادّة المتوفّرة المتنوّعة المتجدّدة التي لا تنتظر غير أن تعاد صياغتها بما يجعلها رواية لا تحارير لشكايات ومطالب وعرائض وخطب ويشّجعني أنّ أكثر من نصف الفصول جاهز تقريبا وفّرته هذه الفترة التي خضتها في الكتابة العموميّة من يوم بدأت إلى يوم قرأت إعلان المسابقة ولا شكّ في أنّ الأيّام القادمة ستتكفّل بفصول جديدة.

– صباح الخير.

بدا لي الصّوت منهكا جدّا كأنّه صوت محتضر، رفعت رأسي فتبيّن لي أنّ صاحبه أكثر إنهاكا.

تقدّم واتّخذ له مكانا أمامي.

شعره أشيب وعيناه غائرتان تطلّان بصعوبة من وراء زّجاج نظّارتيه السّميك.

حركته بطيئة وبيديه ارتعاش ظاهر. لا أدري أين ومتى رأيت هذا الوجه.

كسولة ذاكرتي وواهنة ولكنّي سأردّ على تحيّته كأنّني أعرفه.

– أهلا وسهلا.

– لم تتذكّرني؟

– أنت الآن على باب ذاكرتي وسأتذكّرك حتما.

– أنا زميلك "الفاهم عليان".

أضحكتني كلمة "زميلك" هذه، متى زاملني هذا الرّجل الذي يجاوز عمره عمر جدّي ؟

وإذ لاحظ حيرتي استطرد موضّحا:

–أنا الكاتب العموميّ الذي أرسلت يوما تطلب منّي أن تشاركني مكتبي أيّام بداياتك وكنت وقتها تبحث عن محلّ تنتصب فيه.

أنا الذي زرتك يوم ضبطنا المسمّى "سالم السّالم" يهرّب إليك الحرفاء وتدخّلت لتهدئة الاحتقان.

–آآآه، تذكّرت. مرحبا بك في مكتبي، سآمر لك بقهوة.

–لا صحّة لي للقهوة يا "مبروك"، جئت أعرض عليك أن تقاسمني مكتبي، سمعته طيّبة وحرفاؤه أوفياء وموقعه جلّاب للرّزق وفيه برَكة كبيرة.

توقّف عن الحديث ليتنهّد ثمّ أضاف :

–ولكنّ صحّتي لم تعد تكفي للقيام بشؤونه، تعال إن شئت نتقاسم المداخيل والمصاريف.

–أنا أشكرك أوّلا على ثقتك فيّ.

– طيّب، وبعد الشّكر ؟

–أفكّر ثمّ يأتيك ردّي.

كنت صادقا معه، لم يكن لديّ وقتها جواب وكان عليّ فعلا أن أفكّر وأردّ عليه.

رافقت زميلي إلى طرف المقهى وعدت أفكّر في ما يمكن أن أقول له بعد انقضاء أجل التّفيكر.

ستعارضني أمّي بشدّة وستستشهد بمَـــثَلها الذي تردّده دائما "بهيم الشّركة أدبر" * وسيلقي عليّ أصدقائي درسا طويلا سيبدؤونه حتما بـ : "شدّ مشومك لا ايجيك ما أشوم منّو" وسيستاء كثيرا صديقي صاحب المقهى الذي مكنّني من

محلّ جعلته مكتبا وسيقول لي "من كان في نعمة..." وسيصل الخبر إلى امرأة البروموسبور فيعتريها شعور بالخيبة وتقول لائمة:

– كيف سأشعر بالرّاحة في محلّ يقاسمك فيه رجل غريب عمره من عمر جدّك وكنت أتفاءل خيرا بمكتبك الأوّل، فلا تفسد عليّ راحتي وتفاؤلي ولا تضيّعني.

وسيتوه عنّي حرفائي قبل أن يهتدوا إلى محلّ الشّراكة أو مكتب الاشتراك الذي يضمّنا معا "الفاهم عليان" وأنا.

بدأت أقتنع أن لا شيء يدفعني إلى ترك مكتبي الذي ألفته وألفت أجواءه والمحيطين به وألفه حرفائي وأصدقائي وكدت أتّخذ قراري الأخير وأعلم الرّجل برفضي ولكنّي تذكّرت مشروع الرّواية التي عليّ أن أجدّ فيها والتي سأشارك بها في مسابقة ذلك البنك الكبير والتي قد أفوز بجائزتها فتذوب الفوارق بيني وبين صديقتي صاحبة الورقة المحظوظة في مسابقة البروموسبور وتفتح لي أبواب الشّهرة والوظيفة.

طمع داعبني حول إمكانيّة أن يضيف مكتب "الفاهم عليان" فصولا أخرى إلى روايتي القادمة وأن يكون فيه حرفاء مختلفون بحكايات جديدة ومناخات أكثر إثارة.

بيني وبيني ظللت أقلّب الأمر على جوانبه طيلة أسبوع كامل هو الأسبوع الأخير والرّابع في ذلك الشّهر ثم قرّرت أن أخوض التّجربة وأن أجرّب المحلّ الجديد شهرا أتاكّد فيه من نسق العمل ومستوى الدّخل وطبيعة الشّريك ومدى توفّر مادّة صالحة لإتمام الرّواية ثمّ أقرّر البقاء أو العودة.

لم أخبر أمّي بأمر انتقالي شريكا إلى مكتب جديد أكتب فيه للعموم وأتقاسم فيه المداخيل والمصاريف مع كاتب عموميّ عجوز وعرضت الأمر على أصدقائي

---

* مثل تونسي مفاده أنّه حتّى الحمار إذا اشترك فيه اثنان يهترئ ظهره من شدّة ما يحمله.

على أنّه تجربة محدودة ستزيد خبرتي وستطلعني على خفايا جديدة في مهنتي واعدا إيّاهم بالعودة إليهم وإلى مكتبي الذي سألتزم بدفع مبلغ كرائه طيلة غــيابي.

في اليوم الموالي وقبل أن أتوجّه إلى المقرّ الجديد كتبت على بـــــــاب مكتبي : "أعلم حرفائي الكرام أنّ هذا المكتب مغلق مؤقّتا وأنّني موجود وفي انتظارهم دائما في مكتب آخر قبالة المحكمة الابتدائيّة."

خبّأت داخل درج نسخ تحاريري أو نصف روايتي وقبّلت سورة الشّرح تقبيلا أفقيّا يبدأ من "ألم نشرح" وينتهي عند "إلى ربّك فارغب" وتحسّست حصن أمّي وانطلقت في اتّجاه زميلي "الفاهم عليان".

20

بدأت أمشي في الشّارع الذي يواجه المحكمة وأقرأ أسماء اللّافتات: محامون وعدول إشهاد وعدول تنفيذ ومحاسبون ومترجمون وكتّاب عموميّون... وبعد خمس لافتات قرأتها بيسر وصلت إلى واحدة متـــــآكلة الأطراف والخطّ واللّون : ا.ف.هم ع.ي.. ، طرقت الباب ودخلت مبسملا ومسلّما.

في الدّاخل كان كلّ مـــا في المكتب من عمر صاحبه أو أكثر بقليل: ساعة حائطيّة تعود إلى ماركات العشرينات من القرن الماضي غير أنّ صوتها لا يزال صافيا منتظما فصيحا، طاولتان خشبيّتان متعامدتان تحوّل لونهما بمفعول الهرم من البنّيّ إلى الرّماديّ، كراسيّ خشبيّة من طراز يعود إلى أوّل عهد النّاس بالكراسي، مذياع في حجم تلفزة لونه ألوان مختلفة وأزراره سوداء مستديرة يتدلّى منه محمل جلديّ سميك، أوراق وأقلام ودواة حبر وقلم رصاص وممحاة ومبراة ومقصّ طويل كالذي عند الحلّاقين ومسطرة خشبيّة بطول ثلاثين صنتيمترا...

في الرّكن المقابل لعمّي "الفاهم" مروحة دائريّة الشّكل منتصبة على قاعدة بلاستيكية سوداء بجانبها صندوق كرتونيّ مكتوب عليه "طماطم معلّبة" هو

بمثابة سلّة المهملات وفي الرّكن الآخر حامل أدباش رأيت على إحدى أذرعه معطفا أسود يعلوه تراب أحمر كثيف.

بدت على شريكي الغبطة لمرآي أطرق الباب وأتجاوزه إلى الدّاخل... سلّم عليّ بحرارة وأشار إلى الطّاولة الثّانية وإلى الكرسيّ المختبئ وراءها وطلب منّي بالجلوس فذهبت أستقلّ بهما.

كأنّ الحرفاء يومها أرادوا أن نقضي الصّبيحة في التّعارف وأن يتيحوا لي أن أكتشف خلال هذا اللّقاء الأوّل بعض سطور من مسيرة شريكي الجديد "عميد الكتّاب العموميّين" كما يسمّي نفسه. لم يطرق بابنا أحد عدا الذين اعتادوا كلّما مرّوا أمامه التوقّف للسّلام علـــى صاحب المكتب.

بدأ عمّي "الفاهم" حياته معلّما بإحدى المدارس الابتدائيّة ولكنّه لم يستمرّ في التّدريس غير عامين اثنين عُزل على إثرهما عزلا تامّا وقطعيّا بعدما اشتكت إحدى تلميذاته من تحرّشه. وتمسّك الوزير بموقفه رغم حصول العمّ "الفاهم" على تنازل من وليّ التّلميذة. اضطرّ الفاهم إلى البطالة أشهرا ظلّ ينتظر فيها أن يتزحزح موقف الوزارة ولكنّه لمّا أيقن أنّ عودته إلى الوظيفة باتت مستحيلة فكّر وقدّر ثمّ فكّر وقدّر واختار أن ينتصب كاتبا عموميّا في قلب المدينة يحرّر للنّاس الشّكايات والمطالب وحتّى رسائل الغرام.

اكترى محلّه هذا وانتصب وراء طاولة طويلة تطلّ على الباب وعلى الشّارع وبدأ ينتظر الحرفاء معوّلا على قرب موقعه من المحكمة وعلى تفوّقه على زملائه بمعرفته بفنون اللّغة والصّياغة وانطلقت رحلته مع الكتابة... بدأها برسائل وجّهها إلى كلّ من رئيس الدّولة ووزير التّربية ووزير العدل وأمين عامّ اتّحاد الشّغل يترجّاهم فيها أن يتجاوزوا عن نزوته أو كبوته ويعيدوه إلى أيّ وظيفة قارّة... ولمّا يئس بدأ يتعوّد على وضعه الجديد مقنعا نفسه بأنّ الكتابة العموميّة أكثر جاها وأكثر حريّة وأزيد أجرا أحيانا.

عشيّة يوم التّعارف كانت عشيّة أوّل تحرير أنجزه بمكتب عمّي "الفاهم". وقد كان تحريرا عجيبا لا علاقة له بما اعتاد أن يكتبه الكتّاب العموميّون.

دخلت امرأة ومعها رجلان.

كانت المرأة ملتحفة بالسّواد لا يظهر منها غير وجه ورديّ صغير كانّه وجه رضيع نائم وكان الرّجلان غليظين وبرأسين حليقين شبيهين بحجرين أمْلسين وكانت تزيّن ذراعيهما العاريين رسوم ثعابين خضراء ملتوية بألسنة يتطاير منها سائل يميل إلى الصّفرة.

كانا يحيطان بها كأنّهما يمسكانها من ذراعيها ويطيران بها.

وقفنا، لا أدري لماذا وقفنا لمجرّد أن سدّوا الباب وبدؤوا في الدّخول... رحّبنا بها وبهما وقال عمّي "الفاهم" للزّائرة:

– تفضّلي بالجلوس.

وقلت لمرافقيْها :

– أنتما أيضا، تفضّلا بالجلوس.

لم تأت زائرتنا اليوم لطلب الطّلاق ولا للشّكوى من خيانة ولا لإثبات حقّها في الإرث ولا لأيّ شيء آخر ممّا اعتاد تحريره الكتّاب العموميّون.

قالت حريفتنا بعد أن تجاوزنا التّحايا والتّرحاب :

– سأروي لكما الحكاية من البداية، سابدأها من ليلة زيارته.

– من ؟ قلت، من زارك ليلا ؟

– صوت من السّماء، صوت لم أسمع أصفى ولا أجمل منه، ناداني وحيّاني وسلّم عليّ.

–ثمّ ماذا ؟ قال عمّي "الفاهم" مرتعدا ومبتعدا بكرسيّه إلى الوراء.

– أمرني أن أشرع في مداواة كلّ من يأتيني مريضا، قال لي :

– أنت عليك الحركة ونحن علينا البركة، أعلني للعموم أنّك ستفتحين محلّا للعلاج بالقرآن والمسّ والنّفخ والنّفث والتّمسيد وسيبرأ على يديك كلّ من يقصدك صادقا مصدّقا مؤمنا غير مرتاب ولا مشكّك.

– وما دخل كاتب عموميّ في امرأة ستفتتح عيادة روحانيّة ؟

– جئت لتحرّر لي إشهارا بصفحة كاملة أوزّعه على الجرائد الأكثر انتشارا ليقرأه النّاس في كلّ مكان.

لم يكن ممكنا أن أضحك على الملإ.

ضحكت بيني وبيني.

– اكتب أيّها الكاتب، حرّر لي إعلانا مطوّلا واذكر فيه عنواني وهاتفي وعدّد الأمراض التي سأعالجها.

– وما هي الأمراض التي ستعالجينها سيّدتي حتّى أعرف ما أقول لحرفائك المفترَضين ؟

قالت بثقة يبدو أنّها أبهرت "عمّي الفاهم" الذي تخلّى عن خوفه وقرّب منها كرسيّه ومدّ إليـها رقبته ومسح سريعا نظّارتيه ليتأمّل مليّا وجهها الورديّ الصّغير:

– سأعالج الأبهق والأبرص والنّحيف والبدين والعقيم وضعيف الباءة وضعيف المناعة ومن به حوَل ومن به نقرس أو أصابه السّكّريّ أو داء المفاصل والرّكب ومن ألمّت به الشّقيقة ومن ركبته البواسير ومن ظهر عليه التّرهّل ومن ابتلي بداء السّرظان... سأبطل أعمال السّحر وأسرّع تزويج العازبات وأعيد الحبّ إلى عشوش الزّوجية وأشفي من العين والحسد والجنّ والمسّ والسّحر.

كانت تتكلّم كما لو أنّها طفلة تلقي أمام سيّدها قطعة محفوظات ولو قاطعها أحد منّا أو شتّت انتباهها لنسيت الأمراض التي تنوي أن تعالجها.

كتبت تلك الأمراض العديدة التي سيتخلّص منها خلق الله بفضل هذه الحكيمة الرّوحانيّة الجديدة التي كلّمها وهي نائمة هاتف من السّماوات العليا والتي أكّدت على أنّها لن تستخدم غير الماء والمسّ والجسّ والرّيق والتّمسيد... كنت أكتب وأنا آسف جدّا على مستقبل الأطبّاء الذين اختلفوا إلى الجامعات وأفنوا شبابهم في التّحصيل والانتباه والامتحانات والتّطبيقات. كنت أكتب وأنا أفكّر في مستقبل العيادات ومراكز الأشعّة والتّصوير والتّحاليل الطبيّة ومخابر الدّواء بعد أن يُنشر هذا الاعلان ويقرأه النّاس ويهبّون جميعا بحثا عن هذه الحكيمة الموهوبة.

– اكتب أنّني لن أستخدم غير أصابعي ولساني.

– عدّدت سيّدتي كلّ الأمراض التي ذكرت ولم أنس لسانك وأصابعك، هل من حالات أخرى ؟

– املأ لي بقيّة الصّفحة بشهادات لمرضى توصّلت إلى شفائهم من أمراضهم المستعصية وصف حالتهم قبل العلاج وبعده واكتب شكرهم وثناءهم واعترافهم بالجميل وحثّهم النّاس على زيارتي للتّداوي.

– وأين هؤلاء الذين سيقدّمون شهاداتهم سيّدتي؟

– ليس مهمّا أين هم. ألست كاتبا ؟ إذن، اكتب.

قالت ذلك وسحبت من جيب حقيبتها اليدويّة ورقة بخمسين دينارا وضعتها بيني وبين "عمّي الفاهم".

لم يكن ممكنا أن أكتم ابتسامتي.

ابتسمت.

والتفتّ إلى عمّي "الفاهم" فأشار لي أن اكتب شهادة رجلين أحدهما كان يشكو ضعفا في الباءة وثانيهما أنهكه السّرطان وشهادة امرأتين واحدة نفر منها زوجها وهجرها وأخرى كانت تعاني آلام الشّقيقة وأن أذيّل كلّ شهادة بالشّكر

والثّناء على الحكيمة الرّوحانية التي أشرفت على العلاج وحقّقت المعجزات بأصابعها وريقها.

كتبت ما يملأ صفحة كاملة من صفحات الجرائد وسلّمت المكتوب إلى الحكيمة التي أخرجت من جيب حقيبتها رزمة من بطاقات الزّيارة أهدتنا منها اثنتين ورجتنا أن نساعدها في توزيع البقيّة الباقية على من نستأنس فيه الحكمة ومن نريد له الخير.

وخلال أسبوع واحد امتلأت الجرائد بصور الحكيمة مرفوقة بالمقال الإشهاريّ الذي حرّرته لفائدتها... وبعد شهرين تقريبا رأيتها مرّة أخرى...

لم أرها في مكتبي ولا في مكتب "الفاهم عليان" إنّما على شاشة التّلفزة تتحدّث عن مرضاها ومعجزاتها ومعاليمها المعقولة ودوائها الفعّال وشاهدت تحقيقا صحفيّا يصوّر طابورا من المرضى وأهاليهم يقفون أمام عيادتها وينتظرون أدوارهم للدّخول ويتلهّفون على مقابلة هذه الطّبيبة التي قيل إنّها افتتحت عيادة بعد ما كلّمها هاتف والنّاس نيام وبشّرها بعلاج كلّ العلل.

21

كنّا نشاهد حركة الشّارع الذي ينفتح عليه المكتب ونردّ على تحايا العابرين وننتظر... رأيت العمّ "الفاهم" ينقر بأصابعه المعوجّة على الطّاولة ولم يكن خافيا أنّ ذلك النّقر المتواصل المضطرب علامة توتّر بدأ يسكنه بسبب غياب الحرفاء والحريف الأوّل خاصة ثمّ رأيته يميل بجذعه على الطّاولة ويتّكئ عليها ويقف ويتّجه إلى الباب. لم يدم وقوفه طويلا ثمّ سمعت كلام ترحيب دخل بعده عمّي "الفاهم" مصحوبا بفتاة ورجلين.

وقفت للسّلام وجلست أنصت إلى الحكاية الجديدة التي عليّ أن أحوّلها من منطوق شفويّ إلى تحرير يفهمه القاضي ويبني عليه عنوان القضيّة.

ليت هذه الفتاة لم تأت.

ليتها ولّت وجهها شطر مكتب آخر.

ليتني حافظت على مكتبي الأوّل حتّى لا تكون هذه العريضة من تحريري.

ليتني كنت على درجة محترمة من الذّكاء أو كنت قادرا على التّنبّؤ لأستطيع أن أتوقّع ما سيحدث بعد كلّ عريضة أحرّرها. ليتني كنت أدرك أنّ الشّكايات لا تنتهي بمجرّد أن أضع الورقة في ظرف وأقبض معلوم أتعابي وأنّها تذهب إلى ما بعد ذلك بكثير.

كـانت صريحة تلك الفتاة... لم تتلعثم ولــم تخجل ولم تخش شيئا.

– حقّي وسأثبته، قالت.

– هو حقّها، نحن نؤكّد ذلك ونشهد على صحّة أقوالها، قال الرّجلان اللّذان كانا برفقتها.

–سيعود إليك حقّك، قال زميلي، وكان ينصت إلى "بديعة" باهتمام شديد.

وملتفتا إليّ :

–حرّر لها يا "مبروك" عريضة مؤثّرة في مستوى شكواها الأليمة.

كتبت الحكاية كما سمعتها وفهمتها، كتبت حكاية "بديعة" ذات السّتّ والعشرين عاما صاحبة قاعة الحلاقة العصريّة. كتبت حكاية "بديعة بنت "سعيدة" التي تريد أن تصبح "بديعة بنت محمود بن علي الجيعان".

قالت إنّها عانت طويلا من نسبتها إلى أب مجهول وإنّها لذلك وحده لم تحظ برجل يتزوّجها وإنّها ألحّت على أمّها لتدلّها على أبيها فأبت متعلّلة بأنّ النّبش في ما فات وانقضى لا يجرّ إلّا المتاعب والمآسي ثمّ جاءها الجواب من داخل قاعة حلاقتها.

وجهان كانا لذلك الاكتشاف : وجه أحبّته لأنّها عرفت من يكون أبوها ومن أيّ نسب تنحدر ووجه آلمها وخلّف فيها المرارة لأنّ الرّجل الذي أشاروا به عليها فارق الحياة منذ عامين تقريبا.

هي الآن تعرف من يكون أبوها ولكنّها تدرك أنّها لن تلقاه ولن تكلّمه ولن تسمعه ولن تعيش اعترافه بها ابنة من صلبه.

جاءت بديعة مرفوقة بشاهدين هداها إليهما كلام حريفات قاعتها. لم ينكرا يوم التقتهما وطلبت منهما الشّهادة والمساعدة أنّ المرحوم اعترف لهما بأبوّته لها وبأنّها ابنته أنجبها ذات شهور طيش جمعته بأمّها وأنّه ينوي أن يصلح طيشه ويهبها اسمه.

كتبت كلّ الكلام وما اعترف به الشّاهدان وسلّمت العريضة ظانّا أنّ الأمر انتهى ولم أكن أدري أنّ هناك من سيترك "بديعة" وشاهديها ويناصبني العداء ويتّهمني بتحريك الرّماد الذي تحت اللّهيب وايقاظ فتنة كانت نائمة.

جاءني بعد شيوع خبر الشّكوى ومن حرّرها إلى مكتبي وإلى المنزل وإلى المقهى وإلى الشّارع أبناء المرحوم وأمّهم وانهالوا عليّ سبّا وشتيمة ودعاء وبهم اقتناع أنّي المسؤول عمّا جرى وأنّي حمّلت المرحوم في قبره ما لا يطيق وألصقت به ما هو منه بريء وحشرت نفسي بيني وبين ربّه وكان عليّ أن أصدّ العارضة "بديعة" وأمنعها من الإساءة إلى الأموات وأن أذكّرها بـ : "واذكروا موتاكم..."

قالت أرملته عشيّة اقتحمت عليّ المكتب ولا أدري لماذا وجّهت إليّ وحدي كلّ رشاشها ولم تلتفت إطلاقا إلى ا"لفاهم عليان" :

– كنّا بخير وكان المرحوم هانئا في قبره فتجرّأت أنت وأضفت إلى العائلة بنتا لم ينجبها وألصقت به خيانة لم يرتكبها وبثثت بيني وبين أولادي وأصهاري وأهلي وروحه الطّاهرة فتنة لن تنطفئ أبدا.

وقال أكبر أولاده :

–أين عقلك؟ أين صوابك أيّها الكاتب ؟ تقترف جريمة مستندا إلى كلام رجلين لا شيء يدلّ على أنّهما صادقين ولا شيء يؤكّد أكان ما قاله لهما المرحوم والدي –إن كان قاله– هزلا أم جدّا وتحرّر عريضة تطالب فيها باضافة حلّاقة إلى عائلة أقلّ أبنائها أستاذ بالمعاهد الثّانويّة ؟

واستلّت أمّ "بديعة" نفسها من بيتها وابنتها وجاءتني باكية:

–أقنع "بديعة" أنّ ما ترتكبه إجرام في حقّي وحقّ الآخرين وقل لها أن "تستر ما ستر ربّي".

حاولت أن أقنع العائلة الثّائرة بأنّه لا دخل لي في كلّ ما جرى وأنّ" بديعة " كانت ستجد كاتبا غيري لو أنّني رفضت تحرير شكواها ولا أدري لماذا لم يصدّقني أحد.

قال لي ابن المرحوم هائجا :

– لو رفضتها أنت لرفضها غيرك ولو أقنعتها أنت لما مرّت إلى سواك ولو صددتها أنت لثابت إلى رشدها.

وعادت إليّ زوجة أبي "ربيعة" مهدّدة :

– سنفتح رأسك إن فُتح قبر المرحوم يا رأس البلاء ويا أصل البليّة.

وبلغني في ما بلغني أنّ أخوال الحلّاقة أمهلوها وأمّها ثلاثة أيّام يغادران إثرها المدينة إلى أيّ بقعة بعيدة أخرى إخمادا للنّار التي اشتعلت وحفظا لما لم يُرق بعد من ماء وجوههم.

تركني شريكي لأعدائي... لم يقل جملة واحدة... لم يدافع عنّي بكلمة وحيدة... ظلّ لائذا بالفرجة كأنّني لست شريكه وكأنّني لم أكتب ما كتبت وهو معي وكأنّه لم يكن هو نفسه من أدخل الجماعة إلى المكتب وطلب منّي أن أهتمّ بالشّاكية.

نهشتني عائلة المرحوم ودعت عليّ كثيرا أمّ "بديعة" وتآكلت كثيرا من الدّاخل ولم يعد الهدوء إلى حياتي إلّا بعد ما استجابت "بديعة" وأمّها لقرار النّفي. أغلقت بابها وتركت المدينة ذات عشاء والنّاس يهمّون بالنّوم ومضت.

ألحّ عليّ النّدم على انتقالي إلى مكتب هذا العجوز الأشيب.

لا شيء كان يدعوني إلى ترك مكتبي الأوّل. لا شيء سوى الطّمع وقديما قيل" الطّمع وقطع الرّقبة متجاوران أو هما متساويان" وأنا هزّني الطّمع فكادت رقبتي تُقطع. لعنت سرّا وجهرا الفصل أو الفصول التي قد أضيفها إلى روايتي مؤنّبا نفسي الأمّارة بالطّمع ورادّا عليها بأنّ فصولا أخرى كانت ستأتيني منقادة حتّى لو لم أترك مكتبي الأوّل... ولكنّي رغم كرهي لهذا المكتب وتشاؤمي منه

واستيائي ممّا جرى لي فيه قرّرت أن أستمرّ في التّجربة إلى آخر الشّهر حتّى أنال نصيبي ممّا دخل أدراجنا وأضيف إلى روايتي المتنتظرة فصولا جديدة وأعود إلى دياري الأولى وأنا قاب قوس من ذلك المبلغ الضّخم الذي سيناله الكاتب الفائز.

دون أيّ مقدّمات ودون تمهيد، التفتّ إلى شريكي وسألته:

– لماذا لم تكن معي ولم تقف إلى جانبي ولم تواسني ولو بابتسامة؟

وفيما أنا أنتظر الجواب الذي كنت على يقين أنّه لن يقدّم ولن يؤخّر شيئا وقف بالباب فجأة رجل أعرفه جيّدا وألقى علينا التّحية ثمّ جاوز العتبة إلى الدّاخل ووضع بيننا حقيبة يشبه شكلها كلبا نائما وفتحها وبدا يخرج أثقالها.

–"سي مبروك"، انظر.

وبدأ يعرض عليّ ساعات يدويّة وقوارير عطر وجماميز بألوان زاهية وسراويل تلمّست قماشها فوجدته ناعما رفيعا...

سألناه عن الأسعار فقدّم أرقاما مغوية قدّرت أنّها نصف الأثمان الحقيقيّة وسألناه عن الدّفع فقال :

– قسّطوا كما شئتم.

وفي حين اعتذر زميلي متعلّلا بأنّ الملابس لن تصلح ما أفسده العمر وجدت الأمر مغريا فاخترت لي ساعة وسروالين وجمّازتين وقنّينة عطر.

وكان "سالم السّالم" منكبّا على بضاعته يعيد ترتيبها بنيّة التّحوّل إلى وجهة أخرى يبيع فيها بالتّقسيط سلعه الرّفيعة ذات الأثمان المغرية حين داهم مكتبنا أربعة أعوان شرطة.

رمى "سالم السّالم" حقيبته أرضا وبدأ يفتّش عن فجوة يختبئ فيها أو يفرّ منها ولم أندهش كثيرا من قبض اثنين من الأربعة عليه وتقييد يديه بل من التفات العونين الآخرين إليّ وإلى مشترياتي الجديدة وتقييدي واقتيادي نحو السيّارة الرّابضة على بعد خطوات من المكتب.

تمّ كلّ شيء بسرعة ولم يكن لدى الأعوان وقت لسماع زميلي وهو يقول:

-"مبروك" بريييييييييييييييييييييييييييييييييء...

وكلاما آخر ذاب في الرّيح.

ووجدتني مقيّد اليدين مرميّا كخروف في سيّارة أمن بجواري "سالم السّالم" ورجلين يبدو أنّه قُبض عليهما في القضيّة ذاتها.

– أرجوك "مبروك"، اعذرني، والله –وأعادها مرارا –لا نيّة لي في إيذائك البتّة. كنت أنوي أن أخدمك وأمتّعك بذلك التّخفيض المهمّ وذلك التّقسيط المريح ولكن...

لم أكن إلى حدّ تلك اللّحظة قد وعيت الأمر واستوعبت سبب القبض عليّ ولكنّ الحوار الذي انطلق بين "سالم" ومن معي من المقبوض عليهم كشف لي حقيقة الورطة.

–الذّنب ليس ذنبك يا ""سالم"، الذّنب ذنبي وحدي... انسقت وراء أثمانك وغرّني تقسيطك وكان عليّ أن أفكّر ألف مرّة ومرّة قبل أن أهمّ بالشّراء.

وقال الآخر :

– كان عليك أن تبيع مسروقاتك بعيدا عنّا. ما ذنبنا نحن إذا لم ننتبه إلى أنّك تبيع بضاعة مسروقة ؟

وضرب رأسه على جدار السّيّارة.

أدركت أنّ تهمتي واضحة لا جدال فيها ولا تأويل لها : شراء المسروق.

كيف سأثبت أنّني كنت خالي الذّهن من مصدر البضاعة وأنّني انقدت كَغِرٍّ وراء أثمان هذا الرّجل وأنّني لم أشكّ مقدار ذرّة في أنّ ما في حقيبته ملك له

اشتراه ليتّجر فيه ويجني منه فائدة وكيف سأقنع القاضي أنّ الأثمان لم تُثِرْ انتباهي ولم تدفعني إلى السّؤال عن سرّ انخفاضها؟

22

كنت صبيحتها في مكتبي.

كنت بين عريضتين : رئيس إحدى جمعيّات المجتمع المدني جاء يطلب أن أحرّرله خطابا سيلقيه في حفل افتتاح الجمعيّة الذي دعا إليه ثلّة من المسؤولين ومن رؤساء الجمعيّات الأخرى ومن ناشطي المجتمع المدني ومن رجال الأعمال.

طلب منّي أن أضمّن الخطاب ترحيبا بالحاضرين وثناء على الذين وقفوا إلى جانبه وساندوه في بعث الجمعيّة وفي ترتيب الحفل وأن أسمّي أعضاء الهيئة واحدا واحدا وأن أقدّم البرنامج الذي يعتزم وطاقمه تنفيذه خلال عام على أن يكون مشحونا بالمشاريع وبالوعود وطلب أن تنتهي الكلمة بطلب الدّعم من الجهات المسؤولة ومن أصحاب رؤوس الأموال.

غادرني الحريف الأوّل مبتهجا ولا شكّ في أنّه سيعود إلى بيته وينتحي ركنا ويشرع في حفظ الخطبة أو الكلمة التي سيلقيها حتّى يظهر للنّاس عند أوّل مصافحة خطيبا بارعا وناشطا مدنيّا واعيا.

ومدّ إليّ الحريف الثّاني ملفّا ضخما وبدأ يتحدّث عن قطعة أرض انتزعت منه باطلا وبهتانا. كنت قد بدأت في مسك خيوط قضيّته عندما سمعت هاتفي يرنّ.

– الو، صباح الخير.

– صباح النّور.

–السّيد "مبروك ناجح" من تونس ؟

كان صوتا أنثويّا ناعما كالحرير دافئا كالشّمس.

– نعم.

– تقدّمت بمشاركة في مسابقة الرّواية التي ينظّمها بنكنا ؟

متلعثما أجبت الصّوت:

– تقدّمت، نعم، تقدّمت.

– كتابك الذي شاركت به والذي عنوانه "**كاتب عموميّ**" فاز بالجائزة. يشرّفني أن تكون معنا غرّة الشّهر القادم مرفوقا باثنيْن ممّن تختار من أهلك وأصحابك لتتسلّم جائزتك. ستصلك ثلاث تذاكر وسنرسل من يستقبلكم بالمطار.

كيف أصدّق أنّ ما أسمعه حقيقة ؟ كيف أقتنع أنّ هذا الصّوت لا يهزأ بي وأنّني أنا فعلا المعنيّ بهذا الكلام ؟

تمنّيت لو أطلّت صاحبة البشرى من وراء الهاتف ولو لربع ثانية لأتاكّد أنّ المتكلّم ليس طيفا ولا كائنا خرافيّا ولا من اختلاق خيالي الذي اعتاد أن يطوّح بي من حين لحين ويختلق ما لا أصل له ولا منطق فيه.

تمنّيت لو مدّت مكلمتي هاتفها إلى رئيس لجنة المسابقة وقالت لي هذا "رئيس اللّجنة يريد أن يهنّئك ويدعوك بنفسه لحضور الحفل واستلام الجائزة".

– سيّد "مبروك"، هل تسمعني ؟

– سم ... سمع سمعتك سيّدتي وسأكون في الموعد وأنا شاكر فضلكم كثيرا... اعذريني، هي فقط صدمة الخبر.

–أجدّد لك تهانيّ وموعدنا اليوم الاوّل من الشّهر القادم.

وأغلقت هاتفها.

التفتّ إلى الرّجل الجالس أمامي منتظرا على قلق ومددت له بطاقته ووثائقه واعتذرت له بشغل طارئ وخرجت أجوب طاولات المقهى كالمجنون وأنشر الخبر بين من أعرف ومن لا أعرف من الحرفاء.

أوّل كتاب كتبته ينال جائزة عربيّة كبرى، جائزة يمنحها بنك كبير في بلد بعيد، سيقام حفل وسيطبع كتابي وسيوزّع في أرجاء العالم.

رأيت الفرح يرقص في بؤبؤ عينيْ صاحب المقهى وصبيانه وفي عيون أصدقائي، وسمعته في صوتي الذي أصبح كصوت طفل مزهوّ بلعبه الجديدة وفي أطرافي التي لم تكفّ عن الارتعاش وفي قلبي الذي فقد انتظامه وبدا كأنّه

يتأهّب للطّيران وفي حركة كؤوس الشّاي وفناجين القهوة وقوارير المشروبات التي أصبحت كأنّها سمفونيّة رائعة.

ظلّ الفرح يلازمني مرتقيا كلّ يوم درجات أعلى إلى أن حلّ يوم موعد السّفر.

كنت فرحا لأنّني استطعت أن أحوّل ما عشته في مكتبي من شكايات ومطالب واعتراضات وحكايات وغرائب إلى رواية توّجت بجائزة كبرى.

وكنت فخورا لأنّني سأمتطي الطّائرة وسأتيح لامّي ولـ"رفيق" صديقي أن يمتطياها معي مجّانا... آه لو كان يمكن أن أصطحب صديقتي صاحبة الملايين...

وكنت مبتهجا لأنّني ارتقيت إلى مستوى قريب من صاحبتي صاحبة الثّروة. هي لديها ملايين، أنا أيضا لديّ ملايين وشهرة وصيت سيكبر منذ اللّيلة ولن يراود خيالها أنّني أستغلّ إعجابها للانتفاع بثروتها... وكنت فرحا لأنّ هذه الجائزة ستغيّر كلّ حياتي، لن أظلّ كاتبا عموميّا يحوّل كلام النّاس إلى عرائض وشكايات، سأصبح –وقد أصبحت بعد –كاتبا روائيّا... وقد تنال كتبي القادمة جوائز أخرى وقد تفتح لي الشّهرة أبواب الوظيفة.

هل يُعقل أن يظلّ عاطلا عن العمل من يكتب الرّوايات ويحصد الجوائز الكبرى ؟

يوم وضلنا، كان في استقبالنا رجل أنيق أشيب وفتاة شقراء ترفع فوق جبينها لوحة مكتوب عليها اسمي بخطّ غليظ: "مبروك ناجح".

قال لي "رفيق" :

–انظر 'مبروك'، اسمك هناك.

انتبهت إلى اللّوحة واتّجهت نحوها.

قالت الشّقراء:

–أنت الأستاذ "مبروك " ؟

لا أدري ما قلت وكيف أجبت ولكنّها فهمت كما فهم رفيقها الأشيب الأنيق أنّني الضّيف المنتظَر.

صافحانا بحرارة وقبّلت الفتاة أمّي واحتضنتها وترافقنا إلى سيّارة بيضاء طويلة كانت رابضة على بعد أمتار من المطار.

– سنوصلكم إلى النّزل الذي اخترناه لكم وسنعود إليكم غدا صباحا لنتوجّه معا إلى "قصر الثّقافة" حيث سيتمّ تسليم الجائزة.

خيّل إليّ أنّني أشاهد فلما أو حلما أو أقرأ فصلا من رواية... خيّل إليّ كلّ شيء ولم أستطع أن أصدّق أنّ مايجري حقيقة لا مراء فيها. أخذت أتجوّل في غرفتي وأكتشف أثاثها وأتلمّسه وارتميت على سريرها الوثير وأمسكت بيديّ الهاتف الموضوع على اليمين وفتحت الثّلّاجة الصغيرة المنتصبة على اليسار وتلمّست ما فيها من عصائر وشوكولاطة وماء معدنيّ ثمّ اتّجهت نحو النّافذة فأزحت عنها ستارتها وأشرعتها وبدأت أطلّ على المباني الشّاهقة والشّوارع العامرة والسيّارات المتسارعة والمحلّات الكثيرة. فعلت كلّ ذلك لأقتنع قليلا بأنّني تلقّيت هاتفا واستلمت بعده تذاكر سفر وامتطيت الطّائرة واستُقبلت في المطار ووصلت إلى هذا النّزل الفخم... فعلت كلّ ذلك لأقتنع ولكنّ الذّهول والشّكّ لم يفارقاني فبتّ أنتظر الصّباح لأتأكّد أنّ ما يجري ليس حلما وليس خيالا.

لن أصدّق هذه الحكاية إلّا بعد أن أتسلّم هذه الجائزة التي يتحدّثون عنها وأقتنع بعد ذلك أنّني أصبحت ذا مال وذا جاه وذا شهرة وذا اسم يتردّد في دنيا الثّقافة والإعلام.

عندما حلّ صباح الجائزة واقترب موعد مجيء الفتاة الشّقراء بدأت أسمع صوت قلبي ولم أكن من قبل قد سمعته أو انتبهت إليه كثيرا. ظلّ صوت قلبي

يعلو ويرتفع ولم أدر أَهَدَأَ مع بداية أجواء الحفل أم إنّ الأصوات الكثيرة غطّت عليه وغمرته.

خيّل إليّ وأنا أقترب من ساحة قصر الثّقافة مرفوقا بأمّي وبصاحبي أنّي سمعت النّاس يردّدون :"هذا هو صاحب الجائزة، انظروا إليه، هذا من سينال بعد حين صكّا بنكيّا برقم منتفخ، كم هو محظوظ هذا الشّاب ! نال بكتاب وحيد لم يكتب قبله سطرا واحدا ما لم ينله من ألّفوا عشرات الكتب !

فُتِح باب كبير ودخلنا.

أربع فتيات كأنّهنّ مخلوقات من نور النّجوم يلبسن جمّازات حمراء قصيرة ضيّقة جدّا كأنّها ملبوسة تحت لحمهنّ وسراويل فوق الرّكب بيضاء يقدن الدّاخلين إلى مقاعدهم ويبتسمن فــي وجوه الضّيوف. جلسنا وتمتّعنا بعبارات التّرحيب وبالموسيقى الهادئة، ثمّ بدأت كلمات المسؤولين : واحد من وزارة الثّقافة ومدير البنك ورئيس لجنة التّحكيم...

وبدأت المناداة على الفائزين :

– يتقدّم السّيّد ...

ارتبكت، عصف بي شعور خيبة لم أعرف يوما أمرّ منه فأخفيت وجهي بين كفّيّ حياء من أمّي.

رأيت رجلا يتقدّم وسمعت تصفيقا مدوّيا ولعلّني صفّقت مع الجمهور...

وقفت، كنت أريد أن أحتجّ، أن أقول :

– أنا نوديت لأتسلّم جائزة.

كيف تحوّلت الجائزة إلى هذا الرّجل ؟

هذه الجائزة لي وأنا هنا بناء على دعوتكم لتكريمي.

ثمّ نودي على واحد آخر.

هدأت.

بدأت أطمئنّ، ليس ثمّة فائز واحد.

رأيت امرأة تتقدّم وتصعد إلى المنصّة، قلت أحفظ خطواتها لأفعل بعدها مثلما فعلت، سلّمت على كلّ الواقفين على المنصّة ثمّ أحاط بها اثنان وسلّماها صكّا وشهادة وباقة ورد والتُقطت لها صور كثيرة.

ثمّ نودي على الفائز الأخير.

يتقدّم الآن الفائز بالجائزة الأولى السّيّد " مبروك ناجح" من تونس صاحب روايــة " **كاتب عموميّ** ".

مرتبكا ومرتعشا نهض.

كيف وقف ؟

كيف تقدّم ؟

كيف وصل إلى المنصّة ؟

من صافح؟

هل كان باسما أم كان عابسا أم كان جامدا بلا ملامح ؟

ماذا قال لجماعة التّلفزة الذين أحاطوا به ؟ هو لا يذكر من كلّ ذلك شيئا ولكنّه يذكر أنّه أثنى بالشّكر على "رفيق" صاحبه الذي حثّه على افتتاح مكتب للكتابة العموميّة وعلى أصدقائه الذين ساعدوه في توفير المحلّ وتأثيثه والتّعريف به وعلى ذلك المجنون "سالم السّالم" الذي ساعده في تأثيث روايته بحكاياته العجيبة وعلى الشّابّة التي مات عنها زوجها الشّيخ وتركها للعراء وعلى "بديعة" الحلّاقة التي جاءت تبحث عن إثبات نسبها وعلى العائلة التي اتّهمته بالإساءة إلى رجل ينبغي أن لا يذكر بغير الخير والرّحمة وعلى امرأة البروموسبور التي تخلّصت من زوجها بمجرّد ما ابتسم لها الحظّ وأصبحت مليونيرة وعلى زميله الكـاتب العموميّ الشّيخ "الفاهم عليان " الذي أتاح له فرصة أن يضيف إلى روايته فصولا جديدة وعلى نساء الماخور اللّاتي تبرّعن له بحكاياتهنّ يوم جئن يطلبن من الدّولة أن تقف إلى جانبهنّ بعدما أُحرق محلّهنّ وأُغلق وعلى "منتصر الفار" أو "القارّ" الذي أصبح نائبا في البرلمان وعلى العزّام كاتب الحروز وزوجته

الجميلة وعلى الشّابّ الأبيض السّمين وصديقته الشّاعرة الفايسبوكيّة وعلى القاضي الذي سجنه مرّتيْن... وختم كلمة ثنائه بقبلة أرسلها إلى أمّه من مكانه على المنصّة العالية.

هو يذكر أيضا أنّه أمسك جيّدا بالصّكّ البنكيّ حتّى لا يفلت من يده وأنّه سمع تصفيقا طويلا يهزّ القاعة عندما أنهى كلمته المرتبكة وأنّه تعثّر وهو ينزل عبر المدارج وكاد يسقط أرضا...

صدر للكاتب :

*** في القصّة :**

* موتك يقتلني — دار الإتحاف/ 2001.

* أيّام العطش — دار الإتحاف/ 2002.

* لا موت بعد اليوم — دار الإتحاف/ 2004.

* رأسي الجديد–— طبعة: 1 : دار إشراق للنّشر/2010–

طبعة : 2 : دار رسلان/2015

* بنت الحرام (الجائزة النّقديريّة لمسابقة كتاما / 2014) – الثّقافيّة للنّشر: 20114.

* أنا آسف جدّا ---دار صامد /جائزة نادي القصّة للمجموعة القصصيّة 2016

* خطاب الرّئيس ---- دار زينب / 2017

*** في الرّواية :**

* النّسيان / دار الإتحاف 2003.

* أيّام إضافيّة أخرى – دار البراق– ط : 1: 2006/ ط : 2 : دار رسلان: 2014

*سفَر التّيه –— ط : 1 : المدينة للنّشر/ 2008 : الجائزة الأولى لمسابقة المدينة للرّواية.

*جحيم في الجنّة – ط : 1: مآثر للإنتاج الثّقافي:2009/ط : 2 : دار رسلان : 2014

* قبيْل الشّروق ——2012 / البراق للطّباعة والنّشر.

* كاتب عموميّ---- دار 2017

* وفي انتظار الطّبع :

* مختارات قصصيّة.

*الأعمال القصصيّة الكاملة / الجزء الأوّل .

* الأعمال الرّوائيّة الكاملة/ الجزء الأوّل .

- وللكاتب مقاربات نقديّة منشورة في صحف ومجلّات عربيّة ومداخلات أُلقيت في ندوات تونسيّة ودوليّة.

DESIGN SALEH Y. M.

- تصميم الغلاف
- الإخراج الفني للكتاب
- التحويل الإلكتروني

صالح مبروكي

(+216) 98 603 987
salehymabrouki@gmail.com

منشورات الزرافة